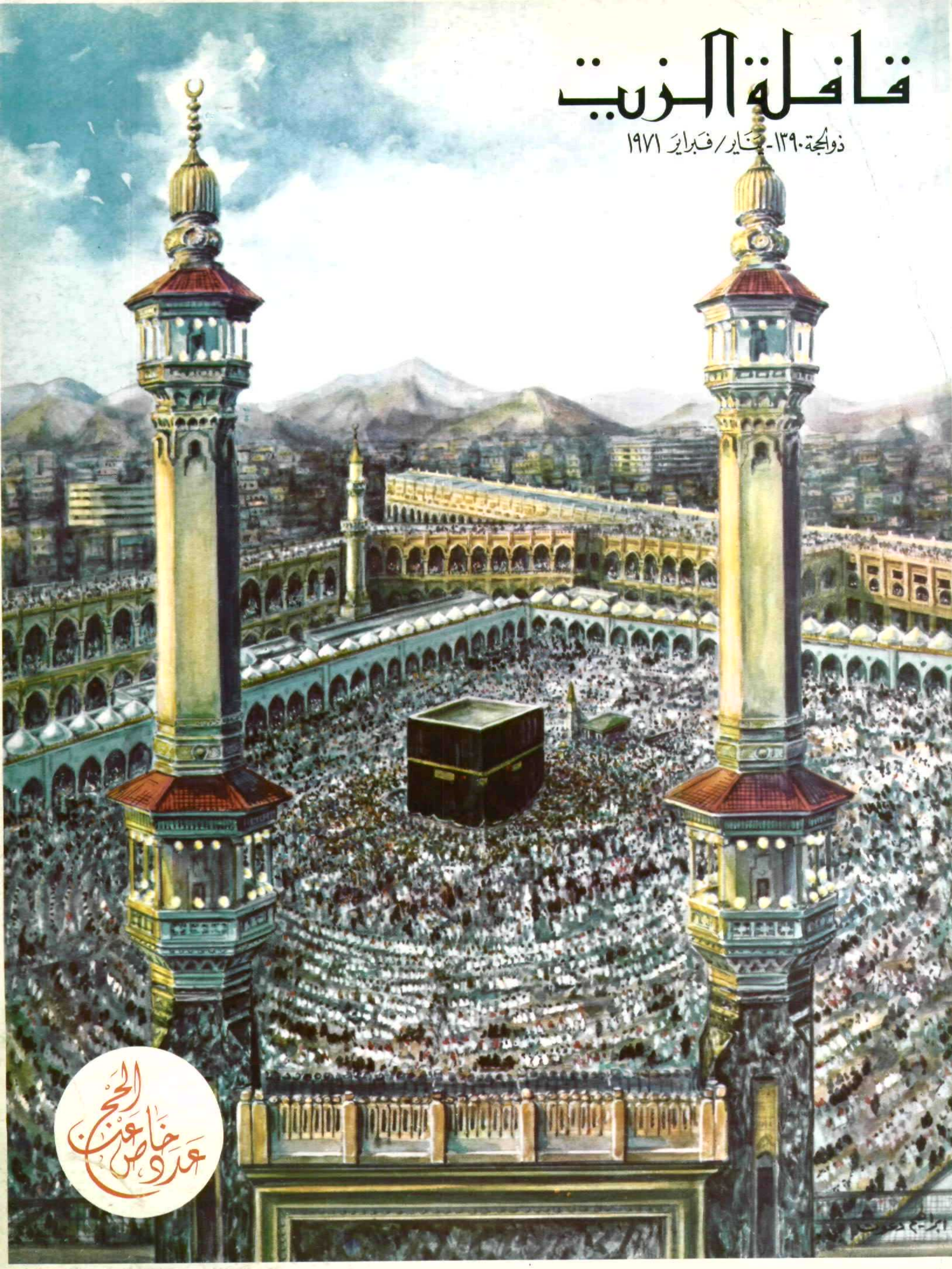

قافلة الزيت
ذو الحجة ١٣٩٠ - يناير / فبراير ١٩٧١
عدد خاص عن الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الثاني عشر – المجلد الثامن عشر

تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الامريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة
توزع مجاناً
العنوان صندوق البريد رقم ١٣٨٩ الظهران - المملكة العربية السعودية

محتويات العدد

المدير العام: مصطفى حسن الخان المدير المسؤول: علي حسن قنا ديلي

رئيس التحرير: منصور مدني المحرر المساعد: عوني ابو كشك

صورة الغلاف

لوحة للحرم المكي الشريف
ابراهيم دعوت

تهنئة بالعيد

يطيب لهيئة تحرير قافلة الزيت أن تغتنم مناسبة حلول عيد الأضحى المبارك، لترفع إلى المسلمين والعرب كافة، وإلى جلالة الفيصل المعظم، وولي عهده الكريم، وإلى حجاج بيت الله الحرام، وإلى قرائها الكرام، أطيب التهاني، ضارعة إلى المولى القدير أن يعيده على الجميع بالطمأنينة والسعادة والسؤدد.

وكل عام وأنتم بخير.

هيئة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

*«وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»

قرآن كريم

*«من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»

حديث شريف



جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود
إمام المسلمين وحامي الحرمين وقائد الحجيج

حجات الرسول الكريم عليه السلام وحجة الوداع

لفضيلة الاستاذ عثمان ابراهيم الحقيل

فرض الله الحج على الناس ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات وجعله أحد أركان الاسلام الخمسة ، وبين سبحانه أنه واجب على المستطيعين اليه سبيلا وهم القادرون على الوصول الى البيت . أما أولئك الذين لا يستطيعون اليه سبيلا فقد أسقطه الله عنهم رحمة بهم وتيسيرا عليهم . كما سهل الأمر على المستطيعين حيث جعل الفرض عليهم مرة واحدة في العمر ، وأكد سبحانه هذه الفريضة المقدسة ، وتوعد من جحدها بقوله تعالى « **ومن كفر فان الله غني عن العالمين** » . فالله سبحانه وتعالى غني عن العالمين وأعمالهم لا تنفعه طاعاتهم ولا تضره معاصيهم ، وهم الفقراء اليه في كل لحظة من لحظات حياتهم ، قال تعالى : « **ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين .** » ويقول تعالى : « **يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد .** »

ولقد شرف الله بيته بايجاب حجه على المستطيع كما شرفه بوجوب التوجه اليه في الصلوات الخمس كل يوم وليلة ، وأمر خليله ابراهيم عليه السلام بتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وجعله مثابة للناس وأمنا يؤمونه من شتى البقاع والأقطار ، ويثوبون اليه المرة بعد المرة ، وكلما زاروه ازدادت محبتهم له وعظم شوقهم اليه ، ولقد غرس الله محبته في النفوس فهي لا تمل من قصده والرجوع اليه ، ومن لم يتمكن من الرجوع اليه بجسمه فانه يرجع اليه بروحه وقلبه ، كما امتن سبحانه وتعالى على المجاورين لبيته بالحرم الآمن الذي تجبى اليه ثمرات كل شيء . وورد أن الصلاة بالمسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه حيث القرب من بيت الله . أول بيت وضع للناس وهو البيت المبارك الذي جعله الله هدى للعالمين ، وجعل فيه آيات بينات منها مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا . وما زال الناس يحجونه من لدن ابراهيم عليه السلام الى هذا العهد والى ما يشاء الله رب العالمين .

والحج موسم عظيم تتوثق فيه عرى التعارف وتقوى فيه أواصر التآلف بين المسلمين ، وتتجلى فيه مظاهر الاتحاد والمساواة والصبر والنظام ، هذا فضلا عن اتاحة الفرصة لكل مسلم للاطلاع على أحوال أخوانه وأمورهم ، فيتدارسون ما يصلح شأنهم ، فتتحد كلمتهم ، وتقوى شوكتهم . فما أعظمه من نهج اسلامي بناء . قال تعالى : « **واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق .** »

وفي قوله تعالى « **ليشهدوا منافع لهم** » اجمال لفوائد الحج ومقاصده وهي منافع عامة شاملة لخيري الدين والدنيا . وفي كل منسك من مناسك الحج من الحكم والمقاصد ما لا يخفى ، ففي تجرد الحجاج من ثيابهم تذكير للانسان بحالته حينما خرج من بطن أمه وبحالته يوم الحشر والنشر . فالمحرم يكسب ما يعينه على هذا الموقف العظيم . وفي لبس الاحرام مظهر يتساوى فيه الحجاج والمعتمرون لا فرق بين غني وفقير ، وقوي وضعيف ، وكبير وصغير ، يتجهون الى الله شعثا غبرا رافعين أصواتهم بالتلبية لله والتنزيه له عن الشريك مكررين له الحمد ، ومعترفين له بالنعمة والملك والحق ، لا فضل لأحد منهم على أحد الا بالتقوى . « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » .

وفي الطواف يلازم الحجاج بيت ربهم وخالقهم يطوفون به ويستلمون الحجر الأسود الذي روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال فيه « الركن يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه والذي نفس ابن عباس بيده ما من امرىء مسلم يسأل الله عنده شيئا الا أعطاه اياه » . وقال عمر لعلي رضي الله عنهما : « يا أبا الحسن ها هنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات »

وفي وقوف الناس بعرفة يدعون الله ويذكرونه ، رجاء لرحمته ومغفرته ورضوانه ، فيوم عرفة هو يوم العتق من النار وهو اليوم الذي يدنو الله عز وجل فيه ويباهي بالحجاج ملائكته ويقول : « **ما أراد هؤلاء فيغفر لهم ويعتق رقابهم من النار فما رؤى ابليس أحقر ولا أذل منه يوم عرفة .** »

وفي الحج يجمع المسلم بين عبادتين ، عبادة بدنية بما يؤديه ببدنه من أعمال الحج وأقواله ، وعبادة مالية بما ينفقه في سبيله . ولقد سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما بر الحج يا رسول الله ؟ قال : « اطعام الطعام وافشاء السلام — وطيب الكلام » ولقد نادى منادي الحج في هذه الأيام الى بيت الله الحرام ، الى طاعة الله ورضوانه ، الى مغفرة الذنوب ونفي الفقر ، الى الاشتراك مع ضيوف الله من الحجاج والمعتمرين الذين ان سألوا الله أعطاهم وان دعوه أجابهم وان استغفروه غفر لهم . ولهذا كان جزاء الحج المبرور الجنة مع ما يحظى به المؤمن من مشاهدة تلك المشاعر المقدسة .

وللحج آداب يجب التمسك بها فمن عزم عليه فليجعل قصده حسنا ونيته صالحة ، وليجتنب الرياء والمراء ، والسباب والفسوق والعصيان ، وليكثر من التلبية والذكر ، والاستغفار ، وليتب الى الله توبة نصوحا . هذا وفي الحديث عن النبي ، صلى الله عليه وسلم « ما يصنع من يؤم هذا البيت اذا لم يكن فيه خصال ثلاث ، ورع يحجزه عما حرم الله ، وحلم يضبط به جهله وحسن صحابة لمن يصحبه والا فلا حاجة لله بحجه » . ومن أجمع الوصايا ما وصى به النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « **لا تحقرن من المعروف شيئا ولو ان تفرغ من دلوك في اناء المستقي ، ولو ان تعطي صلة الحبل ، ولو ان تعطي شسع النعل ، ولو ان تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم ، ولو ان تلقى أخاك ووجهك اليه منطلق ، ولو ان تلقى أخاك المسلم فتسلم عليه ، ولو ان تؤنس الوحشان في الأرض .** » فلنعلم جميعا أن خير الناس أنفعهم للناس وأصبرهم على أذى الناس .

والحديث عن الحج يدعو الى عرض موجز لهدي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في الحج والعمرة . فخير الهدي هديه ، وقد قال : **« خذوا مني مناسككم . »** فقد اعتمر ، صلى الله عليه وسلم ، بعد الهجرة أربع مرات كلهن في شهر ذي القعدة ، الأولى هي عمرة الحديبية وكانت في السنة السادسة للهجرة فصده المشركون عن البيت فتحلل هو وأصحابه من أحرامهم ورجعوا الى المدينة . والثانية هي عمرة القضية ، أو عمرة القضاء ، وكانت في السنة السابعة للهجرة وقد دخل مكة وأقام فيها ثلاثا ثم خرج بعد اكمال عمرته . والثالثة عمرته التي قرنها مع حجته . والرابعة عمرته مع الجعرانة بعد رجوعه من «حنين» ولم يكن في عمره عمرة واحدة خارجا من مكة كما يفعل كثير من الناس اليوم ، وانما كانت عمره كلها داخلا الى مكة .

أما هديه ، صلى الله عليه وسلم ، في الحج ، فلا خلاف في أنه لم يحج بعد الهجرة سوى حجة واحدة . وهي حجة الوداع وكانت في السنة العاشرة بعد فريضة الحج . وقد حج معه خلق كثير . ولما أراد الاحرام اغتسل وتطيب في بدنه ورأسه ثم لبس ازاره ورداءه ثم صلى الظهر ركعتين ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه . وخير أصحابه بين الانساك الثلاثة ثم دعاهم عند دنوهم من مكة الى فسخ الحج والقران الى العمرة لمن لم يكن معه هدى . وكانت زاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر رضي الله عنه واحدة . فلما كان « بسرِف » حاضت عائشة ، رضي الله عنها ، وقد كانت اهلت بعمرة فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وهي تبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ لعلك نفست ، قالت : نعم ، قال : هذا شيء كتبه الله على بنات آدم افعلي ما يفعل الحـاج غير الا تطوفي بالبيت .

فلما دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم المسجد توجه الى البيت ولم يركع تحية المسجد فتحية المسجد الحرام الطواف ، فلما حاذى الحجر الأسود استلمه ولم يزاحم عليه ثم أخذ عن يمينه وجعل البيت عن يساره وقد حفظ عنه بين الركنين : **« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »** ورمل في طوافه هذا الثلاثة الأشواط الأوّل . فكان يسرع في مشيه ويقارب بين خطاه واضطبع بردائه فجعل طرفيه على أحد كتفيه وابدى الآخر ومنكبه وكلما حاذى الحجر الأسود أشار اليه أو استلمه بمحجنه (وهو عصا محنية الرأس) وقبّل المحجن ، وكان يستلم الركن اليماني ولم يثبت عنه انه قبله ولا قبل يده عند استلامه . ثم صلى خلف المقام ركعتين قرأ فيهما بعد الفاتحة سورة الاخلاص . ثم استلم الحجر الأسود وخرج الى الصفا ورقى عليه وسعى ، وكان يصلي مدة اقامته بمكة في منزله بالمسلمين بظاهر مكة ، ثم توجه الى منى بالمسلمين ونزل بها وبات ، فلما طلعت الشمس ، سار منها الى عرفة فوجد القبة قد ضربت له « بنمرة » فنزل بها . وبعد زوال الشمس ، وكان يوم جمعة . سار حتى أتى بطن الوادي في عرفة فخطب بالناس خطبة عظيمة بين فيها قواعد الاسلام . وهدم قواعد الشرك والجاهلية ، وقرر فيها المحرمات من الدماء والأموال والأعراض ، ووضع فيها ربا الجاهلية وأبطله ، وأوصى بالنساء خيرا ، وذكر ما لهن من الرزق والكسوة بالمعروف وما عليهن من حقوق ، وأوصى الأمة بالاعتصام بكتاب الله وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ، وانهم مسئولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون وبما يشهدون ؟ فقالوا : « نشهد انك قد بلغت وأديت ونصحت » . فرفع اصبعه الى السماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرات وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم . ثم أمر بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر ركعتين أسر فيهما بالقراءة ، ثم أقام فصلى العصر ركعتين ، ثم ركب فأتى الموقف في ذيل الجبل عند الصخرات واستقبل القبلة وكان على بعيره ، فأخذ في الدعاء والتضرع والابتهال حتى غروب الشمس وكان رافعا يديه الى صدره وقال : **« وقفت ههنا وعرفة كلها موقف »** . وأخبرهـم **« ان خير الدعاء دعاء يوم عرفة »** .

وكان أكثر دعائه يوم عرفة **« لا إله الا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير »** . وفي هذا اليوم أنزلت عليه الآية الكريمة **« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا »** . وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته وهو محرم فمات ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفن في ثوبيه ، ولا يمس بطيب ، وأن يغسل بماء وسدر ، ولا يغطى رأسه ولا وجهه ، وأخبر أن الله يبعثه يوم القيامة يلبي فلما غربت الشمس أفاض من عرفة بسكينة وهو يقول : **« أيها الناس عليكم بالسكينة فان البر ليس بالايضاع »** أي ليس بالاسراع ، وكان يلبي حتى أتى المزدلفة فأذن المؤذن ثم أقام فصلى المغرب ثم أقام فصلى العشاء ، ثم نام حتى أصبح وأذن في تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدموا الى منى قبل طلوع الفجر بعد غيبوبة القمر . فلما صلى الفجر ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والذكر حتى أسفر جدا قبل طلوع الشمس . وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف ، ثم سار من مزدلفة وهو يلبي . وفي طريقه أمر « ابن عباس » أن يلقط له حصى الجمار ، سبع حصيات من حصى الخذف . فجعل ينفضهن في كفه ويقول :

« بأمثال هؤلاء فارموا واياكم والغلو فانما اهلك من كان قبلكم الغلو في الدين » .

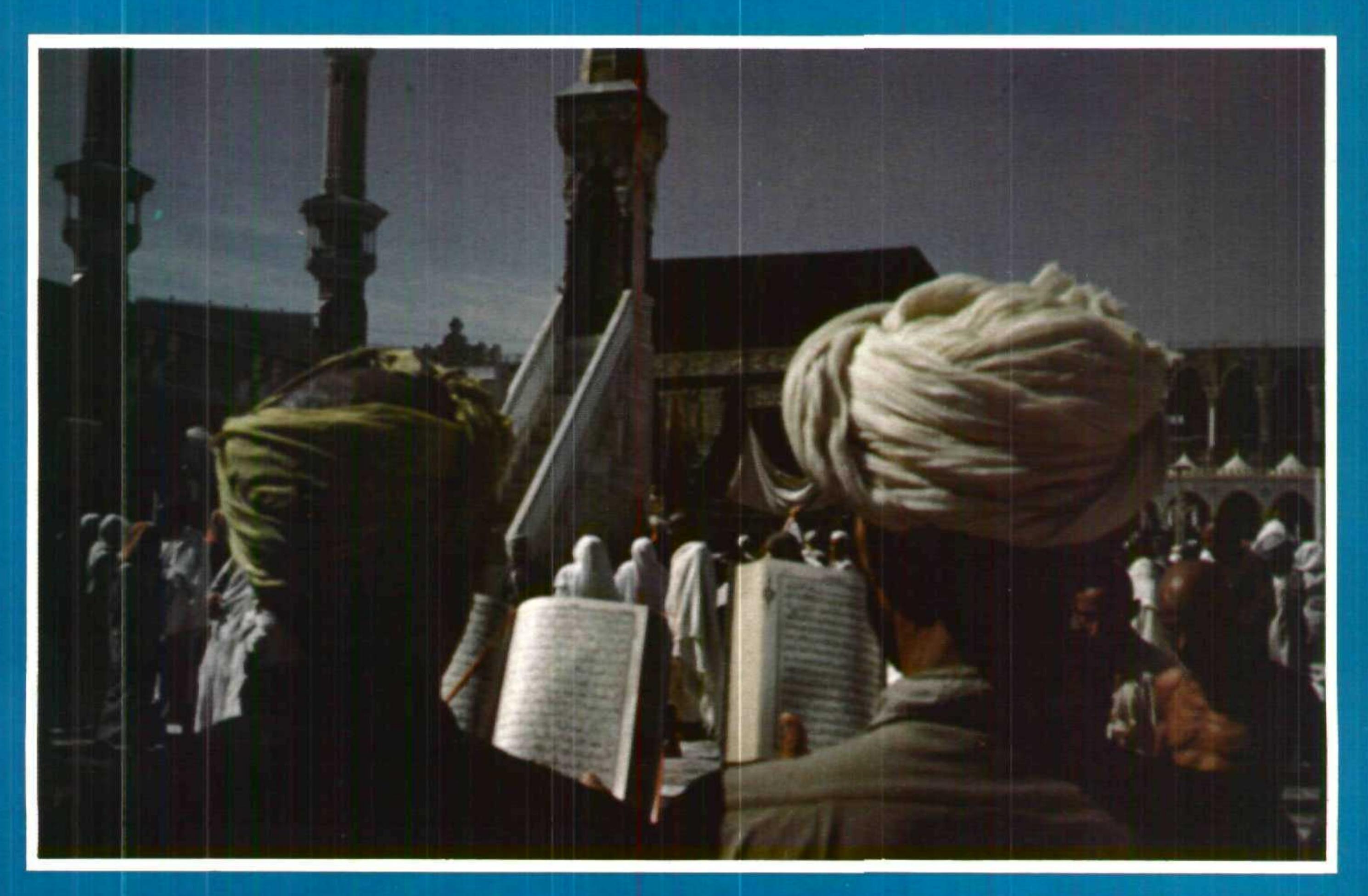
ولما وصل الى منى أتى جمرة العقبة فرماها بعد طلوع الشمس وحينئذ قطع التلبية وفي ذلك اليوم خطب بالناس خطبة بليغة أوضح فيها حرمة يوم النحر وتحريمه وفضله ، وحرمة مكة على جميع البلاد وأمرهم بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه ، وقال : **« لعلي لا أحج بعد عامي هذا »** ، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض وأمر بالتبليغ عنه وأخبر انه **« رب مبلغ أوعى من سامع »** وقال : **« لا يجني جان الا على نفسه »** ، وفتح الله له أسماع الناس حتى سمعها أهل منى في منازلهم وقال في خطبته تلك **« أعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم »** وودع حينئذ الناس فقالوا : حجة الوداع » .

ثم انصرف الى المنحر بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنه بيده وهي عدد سني عمره . ثم أمسك وأمر عليا أن ينحر ما بقي من المائة ، وأن يتصدق بجلالها ولحومها وجلودها على المساكين وقال : **« من شاء اقتطع »** ، ونحر بمنى وقال : **« إن منى كلها منحر وان فجاج مكة طريق ومنحر »** وسئل صلى الله عليه وسلم أن يبني له بمنى بناء يظله من الحر فقال : **« لا منى مناخ لمن سبق »** . وبعد أن أكمل نحره حلق رأسه ثم أفاض الى مكة قبل الظهر ، فطاف طواف الافاضة ، ثم أتى زمزم فشرب وهو قائم للحاجة ، ثم رجع الى منى فنام بها . ولما زالت الشمس مشى من رحله ، فرمى الجمار الثلاث ولم يتعجل صلى الله عليه وسلم في يومين بل تأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة ، ثم أفاض بعد الظهر الى « المحصب » ، ثم طاف طواف الوداع ليلا سحرا ثم نادى بالرحيل فارتحل الناس ■

الحج

مَنَاسِكُهُ وَأَحْكَامُهُ

لفضيلة الشيخ علي الطنطاوي





« وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

الحج كالصلاة ، عبادة من العبادات الأصلية في الاسلام . والرسول صلى الله عليه وسلم قال : صلوا كما رأيتموني أصلي . وقال : خذوا عني مناسككم .فالصلاة الكاملة هي التي تكون مثل صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم ،والحج الكامل هو الـــذي يكون مثل حجه ، ينزل الحاج حيث نزل ، ويرحل حيث رحل ،ويفعل مثلما فعل .

ولكن أعمال الصلاة ، وأعمال الحج ، منها ما هو فرض ، ومنها ما هو واجب ، ومنها ما هو سنة .

فمن ترك فرضا ، (أي ركنا من أركان الصلاة أو الحج) لم تصح صلاته ولا حجته . ومن ترك واجبا في الصلاة ، كمن ينسى مثلا القعدة الأولى ، فانه يسجد سجدة السهو ، ومن ترك واجبا في الحج ، فان عليه بدلا من سجود السهو ذبح شاة .

أما السنن فان تركها لا يفسد الحج ، ولا يوجب الدم ، ولكن يضيع على تاركها الثواب ، وينقص له الأجر .

أركان الحج

الاحرام ، والوقوف في عرفة ، وطواف الافاضة ، والسعي . وكلها متفق عليه ، الا السعي فهو في المذهب الحنفي ، واجب لا فرض .

الاحرام

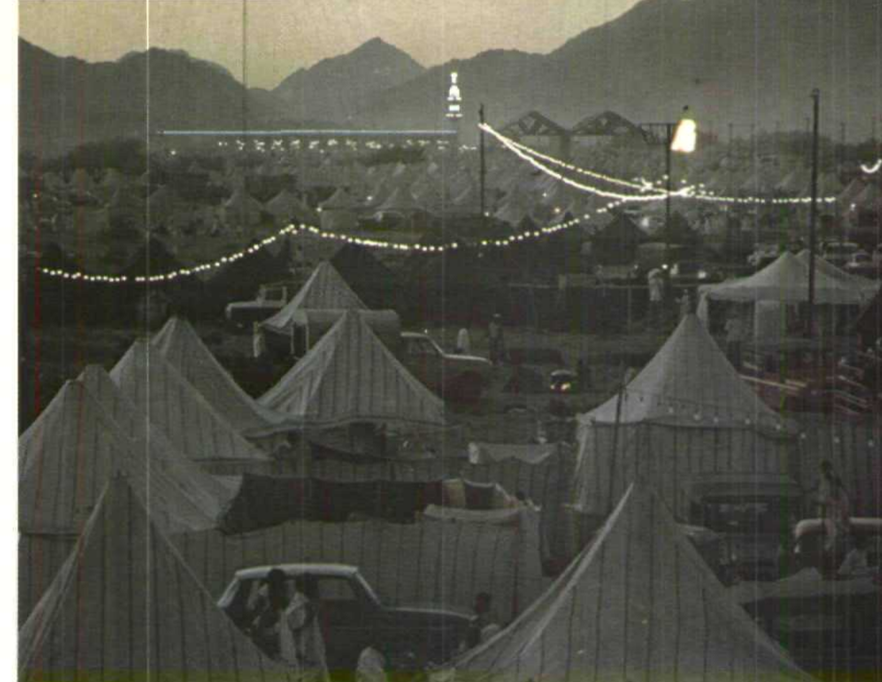
أكثر الناس يظن أن الاحرام هو نزع الثياب ، ويحسب أن شروطه الغسل وصلاة ركعتين . مع أن الاحرام هو النية ، والتلبية . فمن نوى بقلبه الاحرام ، وقال بلسانه : لبيك اللهم لبيك . فقد صار محرما ولو لم ينزع ثيابه ، ولو لم يلبس الازار والرداء .

أما نزع الثياب ، فهو واجب ، فاذا لم يفعله يجبر بالدم .

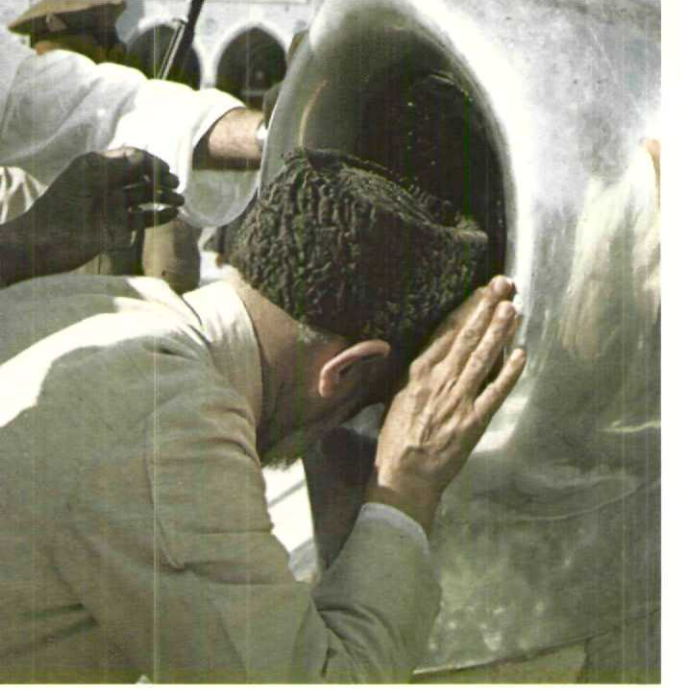
المواقيت

ومن الواجب أن يحرم من الميقات ، أي من الحدود التي رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وألزم من جاء للحج أو للعمرة أن يحرم منها . فان جاوزها بلا احرام ، كان عليه ذبح شاة ، أو العودة الى الميقات ، فيحرم منه .

والمواقيت ليست على مسافة واحدة من الكعبة . فمن جاء المدينة المنورة أو مر بها ، عند قدومه



يبيت معظم الحجيج في منى ليالي التشريق الا من تعجل في يومين فلا اثم عليه .



حجاج بيت الله الحرام يستلمون الحجر الأسود اقتداء بالرسول الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

للحج أو العمرة . وجب عليه الاحرام من المكان المسمى اليوم « آبار علي » . وهي تبعد نحوا من خمسمائة كيلومتر عن الكعبة . ومن جاء من جهة الشمال العربي . من مصر مثلا أو الشام . فميقاته اليوم « رابغ » . فكل من دخل من تلك الجهة وجب عليه الاحرام منها . ومن جاء عن طريق الطائف فميقاته « وادي محرم » عند المسجد . ومن جاء من جهة الشرق فميقاته « السيل الكبير » .

هذه هي الحدود . فمن مر بها أو محاذيا لها . في البر أو في البحر أو في الجو وكان قادما للحج أو العمرة . وجب عليه الاحرام منها .

والذين يجاوزونها بلا احرام . ويحرمون من جدة مثلا عليهم دم . أو أن يرجعوا الى ميقات من هذه المواقيت فيحرموا منه . ولو كان أقرب من الميقات الذي جاء منه الحاج . فلو جاء من المدينة المنورة ولم يحرم . ثم أحرم من « وادي محرم » جاز احرامه . ومن جاء بالطائرة من غربي المملكة ولم يمر على ميقات . ولا من فوقه ولا بحذائه . أحرم من جدة . ويجوز أن يحرم قبل أن يصل الى الميقات . ولو من بيته أو من مطار بلده .

أما الاغتسال أو الوضوء . والتطيب قبله وقص الشعر والأظافر قبله . وصلاة ركعتين كلها سنة . فمن تركها لم يكن عليه اثم . ومن فعلها نال ثوابها .

ممنوعات الاحرام

عرفنا أن الاحرام هو النية . أو النية والتلبية . فمن نوى الاحرام وقال : لبيك اللهم لبيك . صار محرما . ولو لم يغتسل . ولو لم ينزع ثيابه . ولكن اذا استمر على لبس ثيابه المعتادة . نهارا كاملا . كان عليه دم .

واذا تجاوز الميقات بلا احرام . فلم يحرم . (أي لم ينو ولم يلبّ) حتى وصل جدة . أو مكة كان عليه دم الا اذا عاد الى ميقات من المواقيت فأحرم منه .

ومن أحرم من الرجال وجب عليه الابتعاد عن النساء . ومن أحرمت من النساء وجب عليها الابتعاد عن الرجال .

ووجب على الرجل . نزع المخيط . وليس المراد بالمخيط كل ثوب مخيط . بل المراد المخيط المحيط . أي الثياب المعتادة . ولو لم يجد « المناشف » فأخذ عباءته . أو ثوبه . فلفّه على نفسه مثلما يلف الازار جاز .

ووجب عليه كشف رأسه . فلا يلبس أي شيء مما يغطي الرأس عادة . أما اذا اتخذ مظلة . أو استظل بخيمة . أو ركب سيارة . أو حمل على رأسه طبق طعام . أو شيئا مما يحمل . فلا بأس .

ولا يجوز له أن يلبس ما يغطي الكعبين . ولا يشترط لبس النعل المعروف . بل لو لبس الحذاء المعتاد . جاز . ومتى أحرم لم يجز له صيد البر . ولا الطيب . ولا قص الشعر ولا الأظافر .

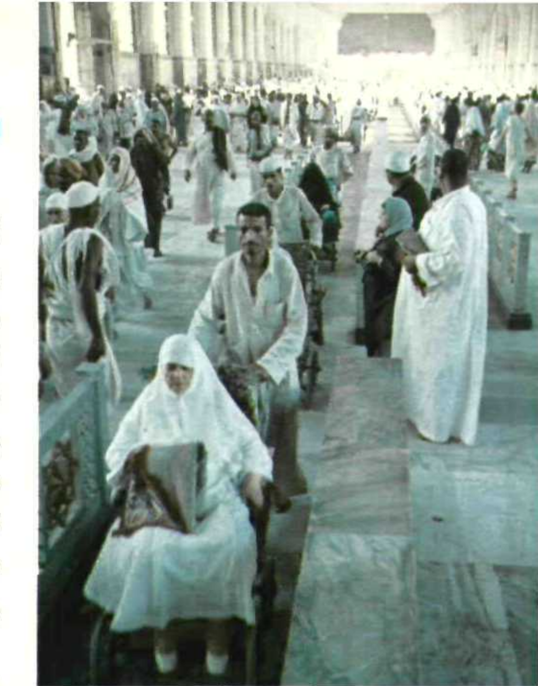
أما المرأة فاحرامها بكشف وجهها وكفيها . فلا يجوز لها لبس البرقع . ولا القفازات . الا موقتا بقصد الاستتار . فاذا رأت المرأة بعض الرجال فعليها أن تستتر منهم . وعند الحنفية لا تجب عليها الفدية . الا اذا استمرت تغطية وجهها من الصبح الى الليل . أو من المغرب الى الصبح . فان غطت وجهها ساعة أو ساعتين كان عليها صدقة .

أنواع الاحرام

للحاج أن ينوي « الحج » فقط . أو ينوي « العمرة والحج باحرام واحد » . أو ينوي « العمرة ثم التحلل منها ثم الحج باحرام جديد » من مكة .

والأول يسمى « الافراد » . والثاني «القران» . والثالث « التمتع » فاذا نوى الحاج الافراد . فانه يحرم ويلبّي . فاذا وصل الى مكة المكرمة طاف طواف القدوم . وسعى بعده ان شاء . ثم قعد الى اليوم الثامن . فخرج الى منى عملا بالسنة . أو اليوم التاسع فخرج الى عرفات رأسا . وان نوى القران فانه يعمل العمل نفسه . الا في المذهب الحنفي . فان القارن عليه سعيان .

وان نوى الحاج التمتع . دخل بعمرة . أي أنه يحرم ويطوف ويسعى ويحلق أو يقصر .



شعيرة السعي بين الصفا والمروة من أركان الحج .

ثم يتحلل ، ويبقى متحللا الى وقت الحج ، فيحرم للحج من مكة ، ويخرج الى الحج .

ومن أحرم ولم ينو واحدا معينا منها ، جاز له بعد أن يعرف هذه الأنواع أن يصرف نيته الى واحد منها . وان نوى ما ينويه رفاقه ، أو ما ينوي فلان من الناس ، جاز له ذلك ، ويتبعه فيما نواه . فالمفرد والقارن يبقيان محرمين الى آخر الحج ، والمتمتع يتحلل ثم يحرم مرة ثانية .

وللحاج أن يختار عند نية الاحرام واحدا من هذه الثلاثة ، والأصل أن يختار ما هو أفضل وأكبر أجرا عند الله . فان اختار ما هو أسهل عليه ، صح حجه ، ولم يكن عليه شيء . فان اختار « الافراد » لم يكن عليه ذبح ، وان اختار القران أو التمتع ، كان عليه ذبح الهدى . وكذلك المرأة الحائض أو النفساء ، فان عليها أن تنوي ما تشاء من أنواع الاحرام الثلاثة . ولكنها اذا نوت التمتع لزم عليها دخول المسجد لطواف العمرة ، وهي لا تستطيع الدخول . لذلك كان الأفضل لها أن تنوي الافراد أو القران .. والحيض والنفاس لا يمنعان المرأة من الاحرام ، ولا يختلف حكمها فيه عن حكم غيرها .

وأهل مكة ، ومن كان في حكم أهل مكة ينوون الافراد فقط . وكل من كان موجودا في مكة قبل دخول شوال ، ولم يكن محرما ، فحكمه حكم أهل مكة .

الاحرام بالعمرة من الحل

الاحرام من مكة نفسها للحج صحيح . أما العمرة فلا يجوز الاحرام بها من مكة ، بل لا بد أن يخرج الى الحل ويحرم منه . وحدود الحرم غير المواقيت التي يكون منها الاحرام . ويبدأ حد الحرم الذي لا يجوز الصيد فيه ، ولا اقتلاع أشجاره ولا القتال فيه ، ولا الاحرام منه للعمرة ، يبدأ من جهة جدة من قرب الشميسي (الحديبية) ، ومن جهة وادي فاطمة من عند مسجد عائشة في التنعيم . وينتهي من جهة الشرق من عند « الجعرانة » من هناك ومن هنا قبيل عرفات بقليل .

وحدود الحرم هي التي رسمها وحددهـــا ابراهيم أبو الأنبياء عليه السلام ، وفي كل جهة من هذه الحدود علامات بيضاء تدل عليها وتبينها .

أعمال الحج

تبدأ أعمال الحج من صباح اليوم الثامن من ذي الحجة وهو يوم التروية(١) ، فاذا صلى الحاج صلاة الفجر في الحرم ، وكان متمتعا دخل بعمرة ، أو كان من أهل مكة ، فعليه أن يحرم بالحج من بيته أو من الحرم وأن يخرج الى منى .

أما من كان محرما وقد بقي على احرامه ، فلا حاجة له الى احرام جديد . فيبقى في منى الى ما بعد فجر يوم الوقفة ، أي أنه يصلي فيها صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء من اليوم الثامن وصلاة الفجر من اليوم التاسع ، ثم يتوجه الى عرفات .

قضاء يوم التروية في منى

وقضاء هذا اليوم في منى سنة . غير أن بعض المطوفين يختارون ما هو أسهل عليهم ، فيخرجون بالحجاج يوم التروية (أي اليوم الثامن) الى عرفات رأسا ، وهذا لا يضر الحج ولا يفسده ولا يوجب فدية ولا دما ، ولكنه ليس من السنة . فالسنة تقضي الخروج الى منى أولا ، والمبيت بها ليلة الوقوف بعرفات .

ومن قام بهذه السنة ، وبات في منى ، يخرج منها صباحا الى عرفات فيصلها قبل الظهر ، فيصلي مع الامام الظهر والعصر جمعا ويسمع الخطبة ، ثم يدخل الموقف .. متوجها الى الله بالذكر والدعاء والتضرع .

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم

وقف الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، على ناقته عند الصخرات الكبار ، في طرف جبل الرحمة ، ولم يصعد عليه ، كما يظن الناس . وليس الصعود عليه من السنة . وما يفعله كثير من الحجاج من التزاحم على صعود الجبل وتعريض أنفسهم للوقوع من فوقه لا أصل له . وانما وقف ، صلى الله عليه وسلم ، عند الصخرات الكبار ليعرف مكانه ، فيسأله الناس . وقد بيّن عليه السلام أن عرفة كلها موقف ، ولبث يدعو ويذكر ويتضرع ، الى الغروب .

الافاضة من عرفات

يبقى الحاج في عرفات الى ما بعد الغروب ، فيكون بذلك قد جنى ثواب الفرض والواجب والسنة . فان نزل قبل الغروب ، وجب عليه دم ، عند الحنفية والمالكية والحنابلة وصح حجه . لأن الواجب هو الوقوف في عرفات جزءا من الليل .

فان لم يستطع الحاج أن يصل الى عرفات نهارا ، ووصلها ليلا ، فوقف فيها ، في أي موضع منها ، دقيقة قبل فجر يوم العيد ، فقد حصل الفرض والواجب .

في مزدلفة

فاذا انقضت وقفة عرفة ، توجه الحاج الى مزدلفة (وتسمى جمعا) والوقوف بمزدلفة واجب لا فرض . أي أنه يجبر بالدم .

ويجب على الحاج ألا يخرج من حدود مزدلفة الى منى ، الا بعد منتصف الليل ، أي ان الواجب هو الوقوف في أية بقعة منها دقيقة بعد منتصف الليل . وهذا ما يقره جمهور الفقهاء . وعند الحنفية يجب الوقوف فيها دقيقة بعد فجر يوم العيد . وعند المالكية يكفي الوقوف فيها ولو نصف ساعة ، لتحصيل الواجب ولم أقف على دليل المالكية فيما ذهبوا اليه .

من أخطاء الحجاج

شاهدنا كثيرا مـــن المطوفين ، يخرجون بحجاجهم من حدود مزدلفة ، قبل نصف الليل ، وهذا لا يجوز ، ويجب فيه عند الحنفية والشافعية والحنابلة على كل حاج دم .

ومن ناحية أخرى فقد وجدت خطأ في الكتاب المشهور « الفقه على المذاهب الأربعة » حول أمر الوقوف في مزدلفة .. وقد جاء فيه أن

(١) سمي يوم التروية لأنهم كانوا يعدون فيه الماء لسقاية الحجاج ، والتاسع يوم الوقفة ، والعاشر يوم النحر ، وأيام العيد الثلاثة الأخرى تسمى أيام التشريق لأنهم كانوا يشرقون فيها اللحم ، أي يعرضونه للشمس من شروقها ، ليجف فيبقى .

الواجب عند الحنفية الوقوف في المزدلفة قبل الفجر ، مع أن الواجب عندهم الوقوف بعد الفجر ، وهو خطأ تكرر في جميع طبعات هذا الكتاب .

رمي جمرة العقبة

فاذا انتصف الليل ، جاز للحاج الخروج من المزدلفة ، والتوجه الى منى للرمي .

وأفضل وقت للبدء بالرمي أول يوم من الفجر الى الزوال . ويجوز في المذاهب كلها الى الغروب ويجوز أن يبدأ الرمي عند الشافعية والحنابلة من بعد منتصف الليل ، ويجوز أن يمتد الى فجر اليوم التالي . بل الى آخر أيام العيد . وخلاصة القول أنه اذا جمعنا بين المذاهب الأربعة وأخذنا بأوسع الأقوال فيها جاز الرمي أول يوم ابتداء من بعد نصف ليلة العيد الى آخر أيام العيد .

وفي أول يوم يرمي الحاج « جمرة العقبة » فقط ، وهي الجمرة القريبة من مكة .

آداب الرمي

والأدب في الرمي ، أن يأتي الحاج خاشعا ، ذاكرا الله ، متصورا فعل ابراهيم ، ويظل مثابرا على التلبية من وقت الاحرام الى أن يصل الى مكان الرمي ، فيقطع التلبية ويكبّر ، وكلما رمى حصاة سمى الله وكبّر ويبتعد عن مكان الرمي قليلا ، ليرمي الحصى رميا ، ولا يقترب حتى يلامس الجمرة ، ويضع الحصاة بيده بلا رمي ، ولا يبتعد فتقع بعيدة عن الجمرة ، أو يصيب بها رؤوس الناس فيؤذيهم فيرتكب حراما . وأن يتذكر الحاج أن ابراهيم كلف بأشق تكليف يكلف به انسان . وهو ذبح ولده الوحيد . فامتثل ، وجاءه الشيطان يصرفه عن تنفيذ أمر الله ، فطرده ورماه ، فولى ، ثم عاد فرماه فولى ، وكان وقوف الشيطان في موضع هذه الدائرة التي ترمى فيها الحصيات والتي بقيت معروفة محدودة من أربعة آلاف سنة الى اليوم (٢) .

أعمال يوم النحر

فاذا انتهى الرمي ، نظر الحاج فان كان قارنا أو متمتعا ذبح ، ثم حلق أو قصر ، وان كان مفردا حلق بلا ذبح ، واذا فعل اثنين من هذه الثلاثة ، فقد تحلل من احرامه ولم يبق ممنوعا عليه الا الأمور الزوجية . فان لم يراع الحاج الترتيب في أعمال يوم النحر وهي : الرمي ، ثم الذبح ، ثم الحلق أو التقصير ، ثم الطواف ، لم يكن عليه شيء عند أكثر الفقهاء أخذا بحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وفهم الحنفية من هذا الحديث أن الترتيب واجب ، فقالوا ، بأن على تاركه دما .

الذبح

وهو على قسمين : الهدي والفدية . فالهدي ، هو الذبح الواجب على القارن والمتمتع . والفدية هي الدم الواجب على من ترك واجبا من واجبات الحج ، أو ارتكب محظورا من محظورات الاحرام ، فلبس ثيابه العادية يوما كاملا ، أو قص أظافر يديه ، أو تطيب . وهذه الذبيحة للفقراء والمساكين . والشرط من الشاة أو المعزى أن تكون قد أتمت السنة من عمرها ، أو دون ذلك ، ولكنها ضخمة سمينة بحيث يظن من يراها بأنها بنت سنة . والبقرة أو الجاموسة ، أن تكون قد أكملت سنتين . والابل يشترط أن تكون قد أكملت الخامسة . ويجوز أن يشترك سبعة في البقرة أو الجمل ، لأن البقرة أو الجمل تعدل في نظر الشرع سبعا من الغنم .

وقت الذبح

ويأتي عادة بعد رمي جمرة العقبة والأيام التالية ، ولكن يجوز عند الشافعية أن يذبح القارن والمتمتع قبل ذلك ، ويجوز في بعض المذاهب تأخيره الى آخر ذي الحجة ، أو الى ما بعد ذلك ، هذا في ذبح الهدي . أما ذبح الفدية فلا حدّ لوقته ويجوز تأخيره .

أما مكان الذبح فهو الحرم كله . والأفضل أن يكون في منى ، ويجوز في مكة ، واذا لم يذبح الحاج في أيام العيد ، وأخّر الذبح ، فانه يذبح في مكة .

والهدي ، أي الذي يذبحه القارن والمتمتع ، يسنّ أن يأكل منه هو وأهله ، ويتصدق بما شاء منه ، ويهدي منه ، ويدخّر منه ، أي انه يفعل به كما يفعل بأضحيّة العيد .

التحلل الاصغر

بعد أن ينتهي الحاج من الرمي والذبح ، يحلق أو يقصر ، والحلق أفضل . والتقصير ، عند الحنفية ، شرطه أن يقص الحاج مقدار أنملة أي سنتمتر واحد من ربع الرأس على الأقل ، وعند الشافعية يكفي أن تقص شعرات معدودات ، فاذا فعل الحاج ذلك جاز له التحلل الأصغر ، أي أنه يلبس ثيابه ، ويقص أظافره ، ويتطيب ، ويعمل كل ما كان محظورا عليه عمله ، الا النساء .



الحجيج يوم الوقوف في عرفات يهللون ويكبرون ، حول جبل الرحمة وعليه ، وعرفة كلها موقف .

طواف الافاضة

هذا الطواف (٣) فرض في جميع المذاهب فمن لم يطف طواف الافاضة لم يقبل حجه . ويبدأ وقت طواف الافاضة ، من بعد منتصف الليل من يوم الوقوف في عرفة ، أما آخر وقته ، فيمتد عند أكثر الأئمة الى آخر العمر .

السعي

وهو ركن من أركان الحج في المذاهب الثلاثة ، ولا يصح الحج الا به ، ويفسد بتركه . وهو عند الحنفية واجب ان تركه صح حجه وعليه دم ، فالحاج المفرد ، عندما يصل مكة يطوف طواف القدوم والأفضل أن يسعى بعده . فاذا سعى ، فلا يجب عليه سعي آخر بعد طواف الافاضة .

والقارن ، يحسن به أن يسعى بعد طواف القدوم . فاذا سعى ، فلا يجب عليه سعي آخر عند المالكية والشافعية والحنابلة ، وعليه سعي آخر عند الحنفية فقط .

---

(٢) لا أظن ان في الدنيا مكان حادثة تاريخية ، حدد موضعه بهذه الدقة ، وقد مر عليه مثل هذا الزمن الطويل .

(٣) الأطوفة ثلاثة : طواف القدوم وهو سنة عند الجمهور — وطواف الافاضة وهو فرض عند الجميع ، وطواف الوداع وهو واجب عند الجمهور على غير الحاج المكي وغير المرأة الحائض .

رمي جمرة العقبة في منى من مناسك الحج يوم العيد وأيام التشريق .



الحلق أو التقصير في منى من أعمال يوم النحر يتحلل بعدها الحجيج .

أما المتمتع ، فعليه أن يسعى مرتين ، مرة للعمرة ومرة بعد طواف الافاضة للحج . فان لم يسع بعد طواف الافاضة فسد حجه عند الجمهور ، وكان عليه القضاء في العام المقبل ، وصح عند الحنفية ووجب عليه الدم .

أما الذي يحرم بالحج من مكة ، فيسعى بعد طواف الافاضة ، ولكن اذا طاف بعد احرامه ، وسعى بعده ، كفاه ذلك ولم يحتج الى سعي آخر .

والسعي ليس عبادة مستقلة كالطواف ، فلا يسعى الا مرة في الحج ، ومرة في العمرة . ولا يجوز السعي الا بعد طواف ، أما الطواف فكلما أكثر منه كان أفضل .

ويجوز أن يسعى ولو كان محدثا ، ولا يشترط له الطهارة ، فيجوز أن يسعى الجنب ، وأن تسعى الحائض . والسعي سبعة أشواط ، يبدأ من الصفا الى المروة . ولا يكون بين الأشواط فاصل زمني طويل ، ويسرع بين العمودين الأخضرين ، وهذا الاسراع سنة ، للرجال لا للنساء ، فان لم يسرع فاته ثواب السنة ، وما عليه شيء .

التحلل الكامل

فاذا أتم الحاج السعي ، فقد انتهى حجه ، وجاز له كل ما كان ممنوعا عليه بالاحرام ، ولم يبق عليه الا رمي الجمرات والمبيت بمنى ، يومين أو ثلاثة أيام .

الحائض

اذا حاضت المرأة ، تعمل كل أعمال الحج الا الطواف ، فتحرم وهي حائض ، وتقف بعرفات وبمزدلفة وترمي الجمرات .

واذا جاءها الحيض قبل طواف الافاضة وجب عليها أن تنتظر حتى تطهر ، وتطوف . ويرى ابن تيمية أنها اذا اضطرت الى السفر ، كأن تكون مع جماعة لا ينتظرونها ، أو أن الباخرة قد جاء موعد سفرها ، فانه يجوز لها أن تطوف . وعند الحنفية تطوف في مثل هذه الحال وتذبح بدنة أي جملا أو ناقة .

المبيت في منى

المبيت في منى ، أو قضاء أكثر الليل فيها ، كأن يسهر فيها الى ما بعد نصف الليل ويذهب الى مكة ، أو يصلي العشاء في مكة ، ثم يذهب الى منى فيمضي فيها أكثر الليل . هذا واجب في المذاهب الثلاثة والشافعي المالكي والحنبلي ، وفي المذهب الحنفي سنة .

رمي أيام منى

المبيت عند الحنفي سنة أما الرمي فهو واجب عند الجميع . ففي أول يوم ترمى جمرة العقبة فقط أما في اليومين الآخرين فترمى **الثلاث** ابتداء بالجمرة الصغرى ، البعيدة عن مكة ، والتي تقع بقرب المسجد ، ثم الوسطى ، ثم الأخيرة .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقف بعد الجمرة الأولى (الصغرى) والجمرة الوسطى وقفة طويلة يدعو ويذكر ، والترتيب في الرمي شرط ، الا عند الحنفية فهو سنة .

ووقت الرمي يكون من بعد الزوال في اليومين الثاني والثالث من أيام العيد ، فلا يجوز الرمي في هذين اليومين قبل الزوال .

غير أن كثيرين من الحجاج يقعون في خطأ شائع اذ يقومون بالرمي قبل الزوال ، ويستندون في ذلك الى قول في المذهب الحنفي ، وهذا القول ، وهو ضعيف ، قاصر على جواز الرمي في اليوم الرابع من أيام العيد أو الثالث من أيام التشريق لمن بقي في منى ، لا في اليومين الأولين .

الرمي في اليوم الرابع من أيام العيد

يقول الله سبحانه وتعالى : « **فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه** » فالحاج يقيم في منى ان شاء يومين فقط ، ويرمي فيهما ، أو يبقى ثلاثة أيام ، وذلك له ، ولكن اذا غابت الشمس من ثالث أيام العيد وهو لا يزال في حدود منى ، وجب عليه أن يرمي يوما آخر . أما عند الحنفية فله أن يخرج ما لم يطلع فجر اليوم الرابع .

وسبب هذا الاختلاف هو أن الله عز وجل ذكر اليوم ، ولم يبين أوله ، فقالوا بأنه يبدأ من غروب شمس اليوم السابق لأن الليالي تتبع الأيام المقبلة . وأخذ أبو حنيفة بالأصل وهو : أن اليوم اسم في الحقيقة للنهار ، قال تعالى « سبع ليال وثمانية أيام » . وهو يبدأ بطلوع الفجر.

من أخطاء الحجاج

كثير من الحجاج يقفون في عرفات قبل المسجد من جهة مكة . ويبيتون في منى بعد جمرة العقبة من جهة مكة ، والأولون لم يصح حجهم لأنهم وقفوا خارج عرفة ، والآخرون لم يصح مبيتهم وعليهم دم في المذاهب الثلاثة ، لأنهم لم يبيتوا في منى ، ومنى تنتهي حدودها بجمرة العقبة ■



« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا »

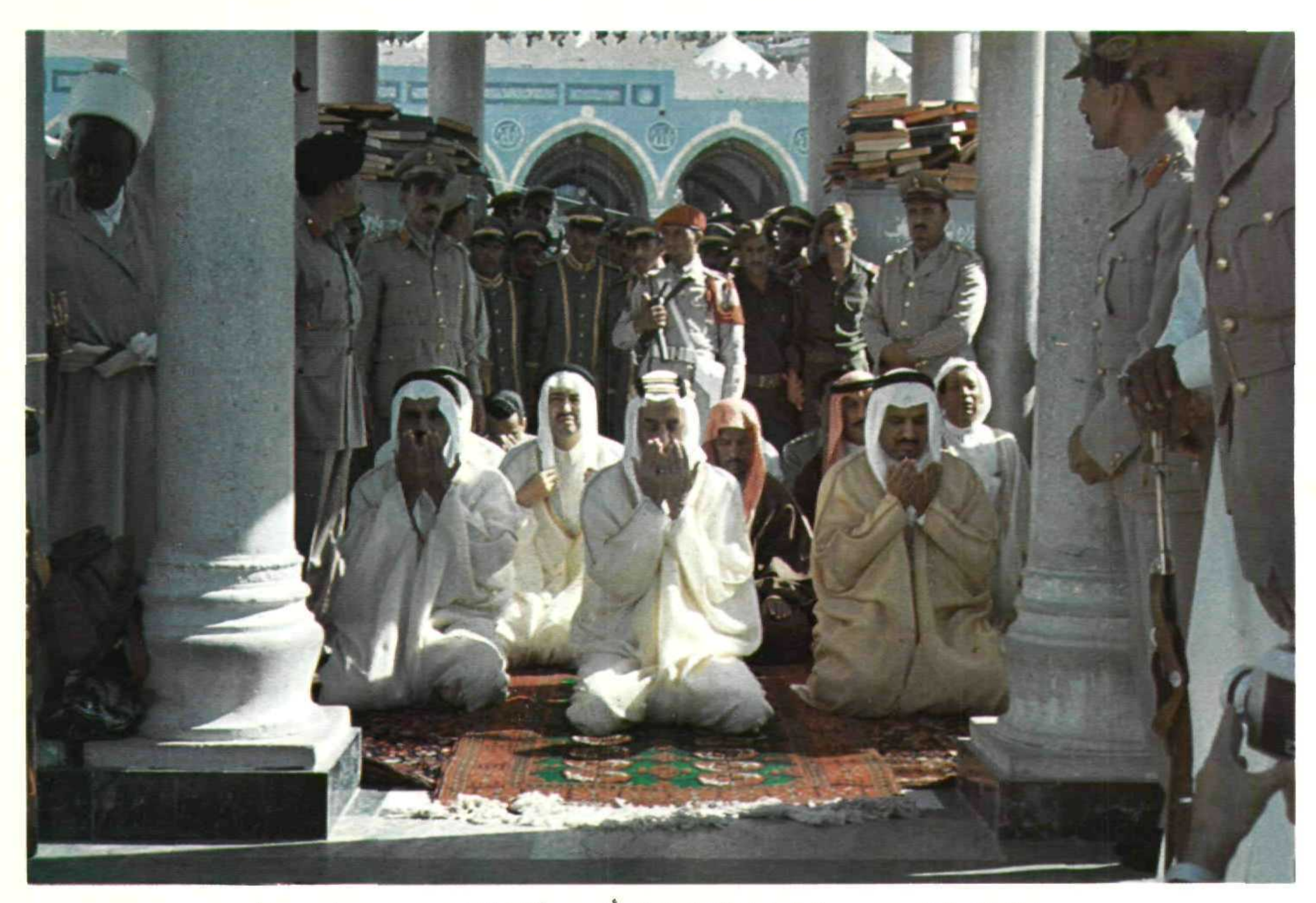
في رحاب البيت العتيق

البيت العتيق

بعد أن رفع ابراهيم القواعد من البيت أمره الله بأن « **أذن في الناس بالحج** » فأتوه رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم وليؤدوا هذا النسك المفروض عليهم . والأذان يدل على أن الحج لم يكن مقصورا على أهل مكة وما حولها ، بل كان يشمل الناس عامة من مختلف أقطار الأرض . وتعميم الناس بالأذان يدل على أن الحج كان غير مخصص بطائفة معينة ، فكان ممن يفد للحج الحنفاء والمشركون والصابئون والنصارى واليهود(١) ، يجمعهم الحج على اختلاف مللهم وأهوائهم وعقائدهم وبيئاتهم لاداء هذه العبادة وللاجتماع في موسم الحج وأسواقه في أمن الأشهر الحرم وأمن الحرم الذي شمل الناس جميعا حتى الحيوان والنبات في وقت كان الناس فيه في أشد الحاجة للأمن .. فكانوا يتعارفون ويتبادلون المنافع ويعقدون المجالس للمشاورات والمفاخرات وحل المشاكل . وقد أتاحت هذه الأسواق والمجالس لقريش فرصة لنهضة قومية واجتماعية وفكرية وتجارية . فنظمت سدانة البيت ، وسقاية الحجيج ورفادته واسندتها الى البطون القوية القادرة عليها(٢) . وقد جلبت الرفادة لقريش كثيرا من الفوائد الأدبية والمادية ،

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي (٢) « سيرة ابن هشام »



جلالة الملك المعظم يدعو ربه قبيل غسل الكعبة المشرفة بأن يوحد كلمة المسلمين وينصرهم على من عاداهم .

فالضيافة تعتبر من أكبر المحامد عند العرب ، وقريش باطعامها الحجاج تكون كأنها عقدت جوارا مع هذه القبائل فوق انها نالت احتراما وفضلا بينها . وهذا يسهل لها المرور بتجارتها آمنة نحو اليمن والشام شتاء أو صيفا .

وقد لفتت قداسة البيت العتيق ومكانته في نفوس الناس جمعاء أنظار بعض الطغاة ، فحاولوا هدمه وتحويل أنظار الخلق عنه فلم يفلحوا « وللبيت رب يحميه » . بيد أن ذلك لم يمنع ظهور بيوت أخرى عرفت « بالبيوت الحرام » كان يحج اليها الناس في أوقات معلومة ويتعاهدون على المسالمة في جوارها . ومنها : بيت « الأقيصر » في مشارف الشام وكانت تقصده قبائل قضاعة ولخم وجذام وعاملة ، وتحج اليه وتحلق عنده رؤوسها . وبيت « ذي الخلصة » وهو بيت أصنام لدوس وخثعم وبجيلة وكان يسمى « بالكعبة اليمانية » ، وقد أمر الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، جريرا بن عبدالله البجلي بهدمه بعد فتح مكة . ومنها أيضا بيت « رئام » أو « بيت صنعاء » يحج اليه اليمنيون وينحرون عنده، وقد هدم بعد انتشار اليهودية في اليمن . و « بيت رضا » الذي كان لبني ربيعة وتميم ، وقد أمر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، المستوغر ابن ربيعة بن سعد بهدمه فهدمه . وكذلك بيت « كعبة نجران » الذي أقيم مضاهاة للكعبة المشرفة . ويقول ابن الكلبي انها « لم تكن بناء ، وانما كانت قبة من أدم من ثمانمائة جلد كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب الحاجة قضيت حاجته ، أو المسترفد رفد. وكان عليها أساقفة معتمون(٣) » .

ولم تستطع هذه البيوت النيل من مكانة الكعبة المشرفة في النفوس ، على الرغم من احتوائها الأصنام في الجاهلية ، فكانت أجل البيوت ذكرا وأعظمها قدرا . وكان الأساس الذي قامت عليه قداسة البيت العتيق أنه المقصود بالقداسة بذاته ، لا الأصنام أو الأوثان التي اشتمل عليها . فربما اشتمل البيت على الصنم أو الوثن تعظمه قبيلة وتزدريه أخرى ، فلا ينتقص ذلك من قدر البيت عند المعظمين والمزدرين على السواء ، وكان العرب لا يدعون أحدا من الأصنام « رب البيت » ، بل كان المراد برب البيت الله عز وجل ، وهم كانوا يلبون ، فيقولون « لبيك اللهم لبيك » وكانت شعائر البيت عموما لا تختلف عما يقوم بها سدنته الذين لم يكونوا يمنعون أحدا من التعبد فيه ، مهما اختلفت نحلهم وأديانهم ، باعتباره بيت الله .

ولما جاء الاسلام حرم الحج ودخول المسجد على المشركين في السنة التاسعة للهجرة . قال تعالى **« يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . »**

الحج في الجاهلية

كان للحج أشهر معلومات تعرف بالأهلة(٤) وهي شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم في بعض الروايات . وكانت قريش ترى القيام بالعمرة في هذه الأشهر من أفجر الفجور(٥) . فلما جاء الاسلام سن الجمع بينهما .

وأول عمل كان يقوم به الحاج قبل البعثة هو الطواف بالبيت العتيق سبعة أشواط تبدأ من الركن الذي فيه الحجر الأسود . وكان

(٣) « معجم البلدان » لياقوت الحموي (٤) تفسير ابن كثير (٥) صحيح البخاري



بحر زاخر من حجاج بيت الله الحرام يؤدون شعائر الحج في منى .

الطائفون آنذاك يتحرجون أن يطوفوا بالكعبة وعليهم ثيابهم الاعتيادية ، حذر أن يكونوا قد اقترفوا من المآثم وهي عليهم . وقد فرض لهم الحمس(٦) من قريش خلع ملابسهم قبل الطواف والتستر بمآزر أحمسية ، ومن لا يقدرون على هـذه المآزر أو لا يجدونها كانوا يطوفون بالبيت عراة رجالا ونساء(٧) ، بعد أن يلقوا ملابسهم التي كانت عليهم ولا يعودون اليها بعد الطواف . وكانت هذه الملابس تسمى « اللقي » . وكذلك سن لهم الحمس أن لا يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرام اذا جاءوا حجاجا أو عمّارا . وفرضت قريش ضريبة تسمى « الحريم » على كل من نزل عليها من الحجيج(٨) ، وكان كثير من الحجيج يأتمرون بأمر الحمس حتى أبطل الاسلام هذه العادات حين أبطل أمر الحمس وحرم على المشركين دخول المسجد الحرام .

والسعي بين الصفا والمروة كان من الأعمال التي يقوم بها الحجيج قبل الاسلام . أما أعظم أيام الحج فكان الوقوف بعرفات ، وكان يسمى يوم « الحج الأكبر » . وكان الحمس من قريش لا يخرجون من الحرم يوم الحج الأكبر ، وانما يقفون في طرفه مما يلي عرفات . ويقولون في ذلك : « نحن أهل الحرم فليس ينبغي أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها ، نحن الحمس والحمس أهل الحرم(٩) . وكان ليوم عرفات رؤساء لا يفيض الناس حتى يفيضون ، فاذا أفاضوا أتوا « جمعا »(١٠) فتوقفوا عنده حتى الفجر ، ثم أفاضوا منه الى منى . وكان من عادة العرب بعد أن يفيضوا أن يعقدوا مجالس المفاخرة ومناشدة الأشعار وتعديد مفاخر الآباء . وقد أبطل الاسلام هذه العادة ، قال تعالى : **« فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » .**

وبعد قضاء الحجيج نسك الحج كان معظمهم يذبحون الهدى والقلائد(١١) عند الأوثان والأنصاب في فناء الكعبة مع ذكرها أثناء الذبح . ثم يلطخون جدار الكعبة بدمائها ، وكانوا يأثمون من أكل لحوم الهدي . ولما جاء الاسلام نهى عن ذكر غير الله عند الذبح ، كما نهى عن تلطيخ جدار الكعبة بدماء الهدي ، فالله لا يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منهم ، وكذلك أباح للحجيج أن يأكلوا من لحم الهدي ويطعموا البائس والفقير والقانع والمعتر .

وكان الناس بعد الفراغ من حجهم يأتون صاحب النسيء الذي يعلن عليهم ما يعلن من تقديم أو تأخير في الأشهر الحرم(١٢) ، اذ كانت العرب في الجاهلية تؤخر سنتها كل ثلاث سنين شهرا حتى توافق بين السنين القمريـة والشمسية لجعل زمن الحج ثابتا في فصل من فصول السنة المعتدل الحرارة . وقد منع الاسلام ذلك ، فقال تعالى « **انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونـه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله** . »

هذا ، ولم يكن الأمن في الحرم متوفرا آنذاك كل التوفر ، على الرغم من تقديس العرب للأشهر الحرم ومكان الحرم . فقد حصل أن تقاتلت قريش وكنانة مع خزاعة في أيام الحج وفي منطقة الحرم ، كما تقاتلت كنانة ضد هوازن وقيس ، في حرب عرفت بحرب الفجار ، بالاضافة الى قيام صراع بين القبائل أدى الى دفن بئر زمزم مرة(١٣) . وتحدثنا بعض الروايات عن البغي واستحلال الحرمات الذي كان يقع بمكة . فكل هذه الأمور كانت تؤدي الى ضعف الحج واخلال الأمن وتعطيل المناسك الدينية ومنافع الناس .

التهيؤ للحج

كذا كان الحج في ذلك الزمان .. وكان الحجيج يعدون بالمئات . أما اليوم فانهم يعدون بمئات الألوف . وكان الحج والاستعداد لـه يستغرق أشهرا كاملة وربما نحوا من عام . أما الآن ، لوجود وسائل النقل السريعة ولتوفر وسائل الراحة ، فان ذلك يمكن أن لا يتعدى أياما تعد على أصابع اليد الواحدة .

وحتى الماضي القريب(١٤) كان الحجيج يتعرضون لكثير من القتل والنهب من قبل قطاع الطرق ، ويلاقون الكثير من المشاق والصعوبات حتى يصلوا الى بيت الله الحرام . وكثيرا ما كان الأدلاء أنفسهم يسوقون وفود الحجيج الى الصحراء القاحلة ويعرضونهم للشمس المحرقة بعد أن يكون الماء قد نفد منهم ، حيث يلاقون حتفهم ، فيجمع الأدلاء أسلابهم ، أو كان قباطنة القوارب ينزلون الحجيج في أقرب ساحل حجازي مما يلي بلادهم ، ويتركونهم في العراء بدون ماء أو طعام أو دليل ، ليسارعوا الى حمل غيرهم من أفواج الحجيج . أما اليوم ، وقد منّ الله على البلاد الأمن والاستقرار ، يلفت نظرك التعليمـات والارشادات التي تصدرها وزارة الحج والأوقاف ، والتي جاء فيها :

« على كل مطوف أن يستقبل الحاج من مبعوثي هيئات الاستقبال بمكة المكرمة ويرحب به ويكرمه ويزوده بالمعلومات الوافية ويقدم لـه المساعدات اللازمة لتمكينه من استئجار السكن المناسب له بالأجر المناسبة . ويشرف عـلى

---

(٦) مفرده أحمس ، ومعناه ابن الحرم (٧) تفسير الطبري (٨) « العصر الجاهلي » لشوقي ضيف (٩) ابن هشام (١٠) مزدلفة أو المشعر الحرام (١١) هو الحيوان الذي يسوقه الحاج معه بعد أداء نسكه . وكان من عادة العرب تقليد الهدي بوضع قلادة في عنقه ، وجرح البدن [illegible] (١٢ و ١٣) ابن هشام (١٤) أي قبل العهد السعودي

راحته طوال اقامته ويساعده على قضاء حوائجه .

وبالاضافة الى ذلك عليه أن يرشده الى أمور دينه ويعينه عليها في الطواف والسعي ومناسك الحج والعمرة بحيث يؤمن للحاج أداء الفريضة على الوجه الصحيح . كما يهيىء له وسائط النقل المقررة في الأوقات المناسبة لصعوده الى عرفات ونزوله منها الى مزدلفة ثم الى منى ثم الى مكة المكرمة ، وذلك بالأجرة المقررة . وكذلك يؤمن له السكن المناسب لاقامته في عرفات وفي منى بالأجرة المناسبة ، ويرشده في تنقلاته . »

وقد كان من عادة الحجيج حتى وقت قريب التهيؤ للحج منذ شهر رجب أو نحوه ، واقامة المحافل والولائم قبل السفر ، ثم التزود بكل ما يحتاجونه من مآكل ومشارب ، والخروج جماعات في قوافل برية أو بحرية . وبعد الحج كانوا يستقبلون وسط الهتاف والترحيب، ثم تقام الولائم وتمد البسط ، ويطلق على من حجّ لقب « حاج » اكراما له واعلاء لشأنه . واليوم لا يحتاج الحاج الى شيء من ذلك ، وكل ما يحتاجه هو نفقات مأكله ومشربه وسكناه وتنقلاته .. وهي تختلف من فرد الى آخر باختلاف البيئة والعادات ونوع الحياة التي يحياها . فالمأكل والمشرب والمسكن ووسائل النقل لهذه الجموع الغفيرة متوفرة ، على الرغم من توافد مئات الآلاف من الحجيج الى بقعة محدودة خلال أيام معلومة ، وما يتبع ذلك من تهيئة وسائل الأمن والراحة والنقل ، وتوفير المتطلبات الغذائية والصحية والعلاجية لهم ، وتنظيم تحركهم جميعا من مكان الى آخر خلال ساعة من الزمن ، مما يتطلب حشد طاقات هائلة من كل القطاعات والاختصاصات لخدمة هذه الآلاف المؤلفة على ما في ذلك من عناء يهون – ولا شك – في سبيل ضيوف الرحمن الحاجين الى بيته الكريم .

والواقع أن شهر رمضان المبارك ما يكاد ينقضي حتى تتأهب مكة المكرمة والمدينة المنورة لاستقبال وفود الحجيج بالوصول جوا و بحرا عن طريق مينائي جدة وينبع ، بيد أن أفواج الحجيج تتدفق في شهر ذي القعدة وأوائل ذي الحجة .

وفي السادس من ذي الحجة تكون وفود الحجيج القادمة من خارج المملكة العربية السعودية وقد وصلت بأجمعها . وفي مساء هذا اليوم من كل عام يقيم جلالة الملك فيصل المعظم حفلا تكريميا لرؤساء وأعضاء بعثات الحج في قصر « البطحاء » في مكة المكرمة . وفي هذا الحفل يتبادل رؤساء الوفود الآراء فيما



تزدحم مباني مكة المكرمة وأسواقها بمئات الألوف من الحجاج أثناء موسم الحج .



أحد مخيمات الحجيج في عرفات ، وهو يضم فوجا من حجاج ايران .

لم أكن أتصور من ذي قبل ان الحج بهذه الصورة .. لم أكن أتوقع هذه الامكانات الضخمة ، وهذه الطرق العديدة المعبدة . لم أكن أتوقع ان المياه تغمر عرفات ومزدلفة ومنى بغزارة لم تخطر ببالي في يوم من الأيام .

١٣٨٩

اسماعيل عبد الرحمن
رئيس بعثة الحج الأثيوبية

يا الهي العظيم ، يا رب البيت الكريم.. اليك أتوجه في سري وعلني .. في صباحي ومسائي .. في كل حركة من حركات الأفلاك ، أتوجه اليك ، أسألك الخير الذي عودتنيه ، والأمل الذي أبتغيه ، والسداد الذي أرتجيه . أتوجه اليك ، أسألك أن تعز الاسلام ، وتعلي رايته ، وتقوي شوكته الى يوم الدين .

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

نشرت صحيفة «أثينز ديلي بوست» ما يلي :

« يعتقد الناس انه لو كانت مكة المكرمة والمدينـــة المنورة في بـــلاد أخرى لاصبحتا مركزا سياحيا تدران دخلا لا يحصى. ولكن طبقا للمعلومات المتوفرة فان المملكة العربية السعودية تنفق علـى الحجيج أكثر مما تأخذ منهم على الرغم من ان الحجاج يمكن أن يكونوا موردا لا ينضب من العملات الأجنبية . »

وأشارت الصحيفة الى ملابس الاحرام ، فقالت : « إنه يساوي بين الناس ، الغني والفقير والقوي والضعيف والصغير والكبير . وطالما انهم يواجهون الله فانه يجب أن يكونوا متساوين . »

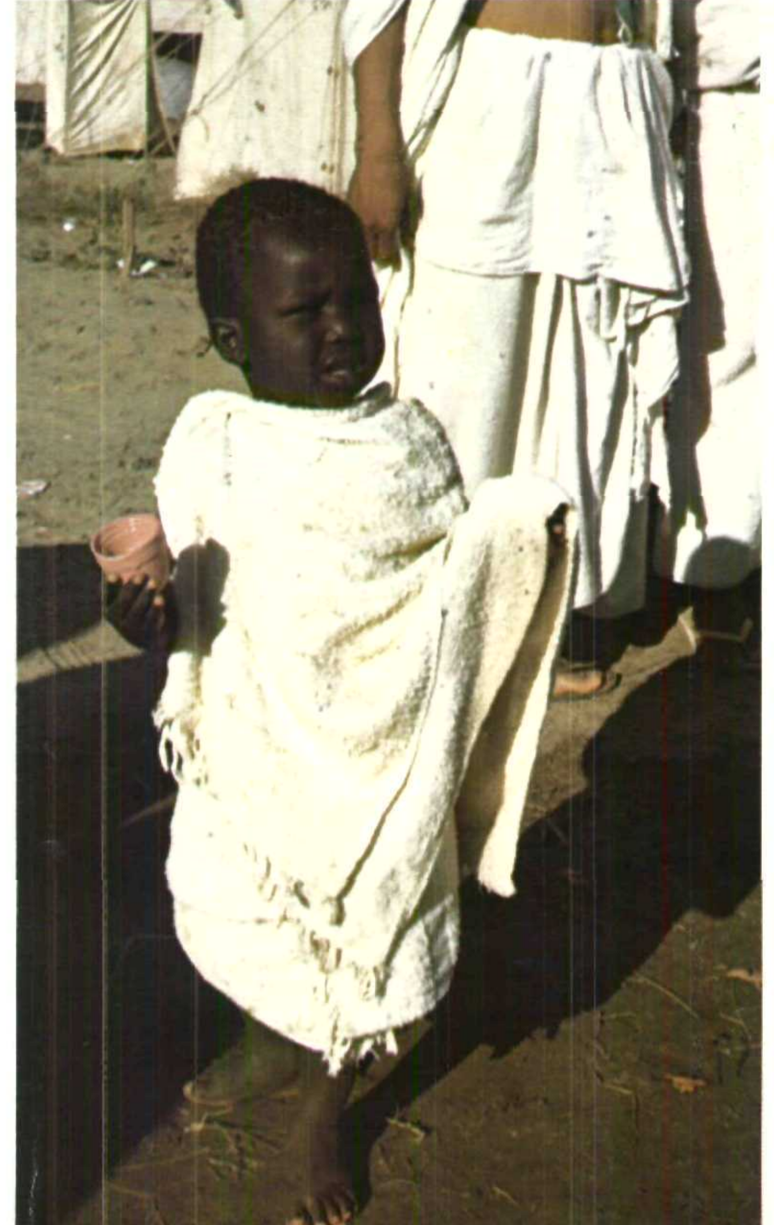
وقالت : « ان عدد الحجاج يتزايد عاما بعد عام ، وان الحكومة السعودية تواجه هذه الزيادة بما تعده مـــن مشروعات خاصة بالحج والحجاج تهدف الى خدمة هـــذا العدد الهائل من الزوار . »

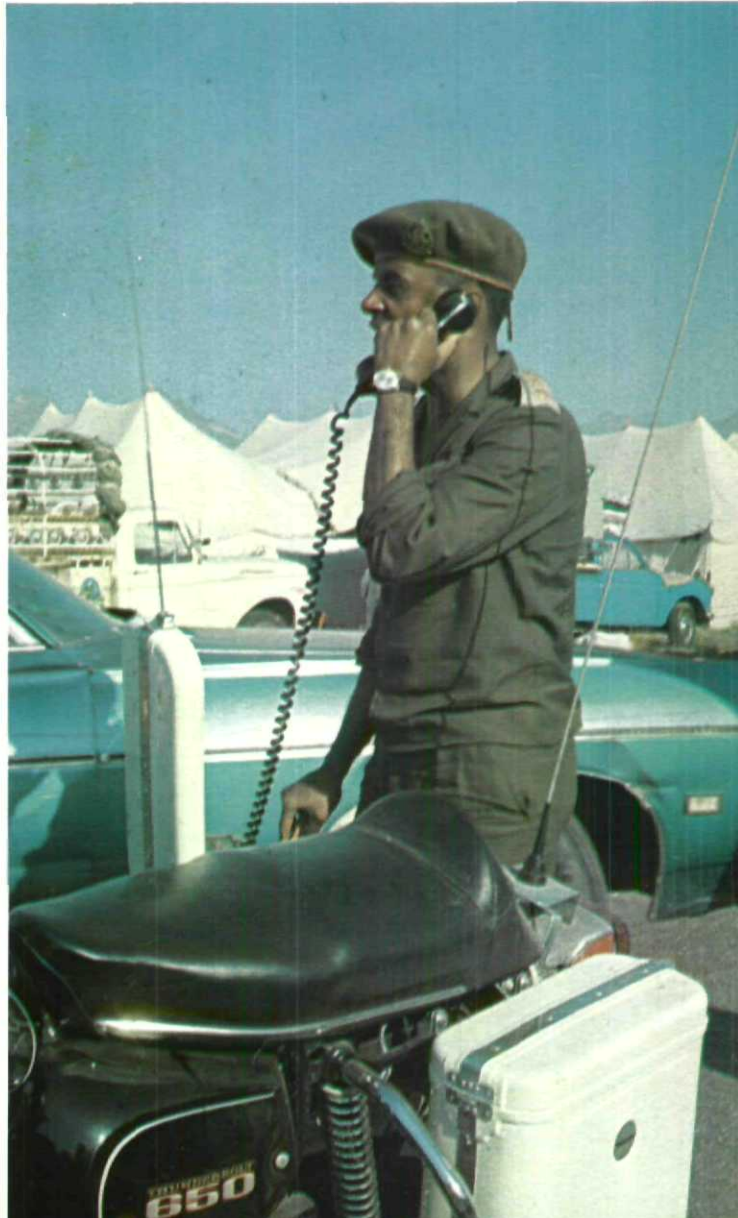
١



٢

٣







١ــ أفواج الحجيج تفد الى ميناء جدة البحري لحج بيت الله الحرام .

٢ــ رجال الشرطة والنجدة يسهرون على مصلحة الحجاج في عرفات حفاظا على سلامتهم وأمنهم .

٣ــ قطع هذا الحاج الصغير آلاف الأميال ليشهد منافع للناس في عرفات ويذكر اسم الله في أيام معلومات .

٤ــ يتشرف حامي الحرمين الملك فيصل المعظم ورؤساء وفود الحجيج بغسل الكعبة المشرفة مرة كل عام قبل الطلوع الى عرفات .

يعود على الاسلام والمسلمين بالخير والصلاح ، وتلقى فيه الكلمات والقصائد . كما يلقي جلالة الملك كلمة يبيّن فيها ما ينبغي على المسلمين عمله في سبيل اعلاء كلمة الله ورفع شأن الاسلام . وفي موسم الحج من العام الماضي ١٣٨٩ ، ألقى جلالة حامي الحرمين الشريفين كلمة قال فيها :

« اذا كنا في أي يوم من الأيام في حاجة الى التعاون والى التضامن فيما بيننا والى تلمس طريقنا الى الهدى والرشاد ، فاننا في هذه الفترة من الزمن أشد ما نكون الى تلمس هذه الأهداف والغايات لنصل الى ما نصبو اليه من حفاظ على ديننا وعقيدتنا وكرامتنا ومستقبلنا الذي نأمل بحول الله وقوته أن يكون خيرا من ماضينا . »

« يجب أن نعود الى المحافظة على ديننا وعقيدتنا وشريعتنا وأن نستعد للكفاح بكل ما أوتينا من قوة. قوة الايمان والاخلاص، ثم قوة الاصلاح والنهوض ببلداننا وبكل ما يتطلبه هذا الاستعداد من تقوية في أجهزتنا الدفاعية لنصل الى حقوقنا » .

« أرى أن أول شيء يجب علينا القيام به هو أن نثقف أنفسنا في عقيدتنا وديننا ، فالكثير منا يجهل مزايا الشريعة الاسلامية والعقيدة الاسلامية لأننا نمر عليها مرورا سطحيا لا نتعمق في مزاياها ومنافعها وخيراتها للدنيا والدين . »

« لو عدنا الى ديننا والى عقيدتنا والى مثُلنا لوجدنا أننا في المركز الذي يمكن أن يعطي للعالم نورا يستضيئون به ليهتدوا الى سبيل الرشد ويعودوا عن غيهم الذي يتخبطون فيه . »

« الانقاذ لا يكون الا بتحقيق الايمان بالله سبحانه وتعالى ، والاخلاص في العمل وتوحيد الكلمة ، والسعي لما يحقق العدل والانصاف . »

« لذلك فاني أدعو أخواني المسلمين دعوة مجددة أن يهبوا لنصرة الحق وهو حقهم ، ولنصرة العدل وهو العدل فيهم . »

« اني أيها الأخوة لأرى في العالم اليوم اتجاها الى نسف كل عقيدة تنتمي الى الله سبحانه وتعالى ، فاني أدعوكم لأن تحصنوا أنفسكم أمام هذه المبادىء بأن تقووا ايمانكم بربكم واخلاصكم له وأن تعضوا على شريعتكم وعقيدتكم بالنواجذ حتى لا تبلغ هذه التيارات منكم رغبتها وما تصبو اليه . »

وفي صباح اليوم السابع من ذي الحجة من كل عام يتشرف جلالة قائد الحجيج بغسل الكعبة المشرفة بماء زمزم ، يشاركه في ذلك رؤساء بعثات الوفود الاسلامية وبعثات الحجيج

انى أرى « البطحاء » تشرق كالضحى
بالناسكين وكلهم أعلام
الراكعين ، الساجدين ، ومن لهم
منا « الشغاف » تحية وسلام
قد ألف الرحمن بين قلوبهم
وهم به التوفيق والأنعام
يتلمسون نجاتهم من كل ما
منيت به الأرواح والأجسام
ويكبرون الله بين « مشاعر »
فيها الدموع تمور وهي سجام

١٣٨٩

أحمد ابراهيم الغزاوي

الحقيقة اني كنت لا أتصور كيف يستطيع أي تنظيم ، أو أية هيئة ، أو أية حكومة ترتيب وسائل المعيشة لمثل هذا العدد من الحجاج ، وتهيئة الجو والمعيشة المناسبتين لتأدية فرائض الحج . ولكني ذهلت بأن كل شيء ، بأمر الله ثم بفضل القائمين على الأمر في هذا البلد ، كان ينفذ بشكل دقيق كفل لجميع الحجاج اداء مناسك الحج في راحة ويسر واطمئنان لا تصور .

١٣٨٩

محمد أحمد الكومي
رئيس البعثة الطبية المصرية





١ - حاج صغير يتلو بعض الأدعية في عرفات .

٢ - حجاج بيت الله الحرام يفيضون من منى بعد أيام التشريق ويدعون الله بأن يتقبل منهم صالح أعمالهم .

٣ - جمعيات الهلال الأحمر الاسلامية تسهم في اسداء خدماتها الانسانية الى حجاج بيت الله الحرام في عرفات .

أصحاب الفضيلة العلماء ، وتنقل مراسيم غسل الكعبة المشرفة عبر اذاعات وتلفزيون معظم البلاد العربية الاسلامية .

وفي مكة المكرمة تكتظ الشوارع والعمارات الشاهقة بأفواج الحجيج . وفي المسجد الحرام يزدحم المطاف والمسعى بالحجيج والمعتمرين حتى لا تكاد ترى موقعا لقدم ولا تسمع الا أصوات التلبية والذكر والدعاء .. خاشعة قلوبهم شاخصة أبصارهم دامعة أعينهم ، وقد تجردوا من مشاغل الدنيا ومهامها ، هم أمام الله واحد .. غنيهم وفقيرهم ، أبيضهم وأسودهم ، عربيهم وعجميهم ، لا يفرق بينهم الا التقوى والايمان .

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة تنتقل طلائع الحجيج أفواجا في ملابس الاحرام الى منى فلا ترى سوى قطعا من النهار سائرة ، ولا تسمع الا أصوات التلبية « **لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك** » .

وفي منى يبيتون ليلتهم . ثم ينتقلون في اليوم التالي الى عرفات ، واليها ينتقل أيضا بقية الحجيج ممن لم يبت في منى . و « الحج عرفة » . بها يقضون يومهم بين استغفار ودعاء ، خاشعين ، مهطعين رؤوسهم ، متوجهين بقلوبهم الى الله تعالى ، متضرعين ملحين في الدعاء والانابة ، متجردين كل التجرد من أدران الدنيا ، راجين القبول والصفح . ألا ما أروعه من منظر : الخيام منبسطة على مهاد من الأرض ، والناس توحدهم ملابس الاحرام .. لا تسمع الا أصوات التكبير والتهليل والدعاء والانابة : « **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** » .

هذا رجل حمل أعباء السنين على ظهره وابيض شعره وهرم جسمه ، قطع آلاف الأميال ليقف هذا الموقف دامعة عينه داع قلبه : « **ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا في الاسلام** » . وهذا طفل غض الاهاب أتى ليشارك في هذا الموقف الجليل : « **ربنا هب لنا من أمرنا رشدا** » . وتلك عجوز بلغ بها الضعف مبلغه ، قلبها يتفتت حسرة عند ذكرها صغارا لها كزغب القطا تركتهن في عهدة من لا يخيب فيه الرجاء ، واتجهت تؤدي فرضا كتب عليها وتقف أمام الله وتدعوه : « **ربنا هب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب** » .

فيا له من موقف جليل حري بأن تشد اليه الرحال وتحتمل في سبيله المشاق .. يقف فيه نحو مليون ونصف مليون حاج على صعيد واحد .

سررت جدا بما لاحظته من عناية واهتمام المسؤولين هنا في المملكة العربية السعودية باظهار المشاعر المقدسة بالمظهر اللائق الذي يساعد حجاج بيت الله الحرام على اداء الفريضة بكل راحة واطمئنان . وانني مقدر لما بذله الرجال الساهرون على المرور في المشاعر المقدسة ، وأشيد أيضا بالناحية الصحية التي كانت نتائجها عدم انتشار أي مرض وبائي .

١٣٨٩

أحمد بركاش
وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية
ورئيس بعثة الحج المغربية

هو يوم يذكر الانسان بيوم الحشر الأكبر ..

وبين أصوات الدعاء والتبتل يطرق سمعك هدير طائرة حوامة تحلق في الأجواء لتنظيم المرور والتأكد من سلامة الحجيج ، أو صوت المعلق وهو يعلن عبر مكبرات الصوت عن حاج تائه ويطلب من مطوفه تسلمه . وفي الظهر يصل الى مسامعك ، أينما كنت في عرفة ، عبر مكبرات للصوت ، صوت الامام وهو يؤم الناس بصلاة الظهر ، ثم صوته وهو يلقي خطبة عرفة . وان تجولت جهة سفح جبل الرحمة يلفت نظرك أكداس من الثلج مبذولة للجميع بلا مقابل .

وبعد غروب شمس اليوم التاسع من ذي الحجة يفيض الحجيج الى المزدلفة(١٥) مكبرين مهللين ملبين .. وفي المزدلفة يصلي الحجيج المغرب والعشاء قصرا جمع تأخير بأذان واحد واقامتين ، فلا ترى الا أضواء خافتة تنبعث من قناديل الآلاف المؤلفة التي افترشت الأرض ملبية مهللة مكبرة ذاكرة الله تعالى « **فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام** » .

وبعد منتصف الليل يفيض الحجيج مرة الى منى . فترتفع أصوات محركات السيارات وأبواقها مختلطة بأصوات التلبية والتكبير والتهليل .. مليون ونصف مليون حاج ينتقلون في وقت واحد ، وتسير الأمور كأحسن ما يمكن أن تسير .. لا ازدحام ولا توقف طويل ولا حوادث تذكر ، ولا غرو فالمسالك متعددة ورجال المرور مهيمنون على السير .

وفي منى يتجه الحجيج الى جمرة العقبة ويرميها كل حاج بسبع حصيات مكبرا . وبرميها تنقطع التلبية . ويحرص معظم الحجيج على أن يرمي جمرة العقبة قبل الزوال من يوم العيد . وبعد رمي جمرة العقبة يتجه بعض الحجيج الى مكة المكرمة ليطوف طواف الافاضة « **وليطوفوا بالبيت العتيق** » ، ومنهم من يتجه الى هديه .. يذبحه أو ينحره في المكان المخصص لذلك ذاكرا اسم الله عز وجل ، فالذبح في غير موضعه ممنوع منعا باتا ، وذلك حرصا على سلامة الحجاج وصحتهم .

وفي منى يبيت الناس ثلاث ليال ، الا « **من تعجل في يومين فلا اثم عليه** » ، ويرمون في كل يوم الجمرات الثلاث بسبع حصيات من وقت الزوال حتى غروب الشمس من كل يوم . فكنت ترى الجموع الزاخرة تسير في شارع الجمرات كالسيل الجارف في طريقها الى الجمرات أو عائدة منه .. لا ترى سوى الآلاف المؤلفة من البشر ولا تسمع الا أصوات التكبير مقترنة بصوت ارتطام الحصى الصغيرة بجدار الجمرات . واذا ابتعدت عن شارع الجمرات تناهت الى أذنك أصوات التهليل والتكبير الصادرة عن مكبرات الصوت التابعة لوزارة الاعلام ، أو صوت مضخة مبيدات الحشرات وهي تنفث دخانها الأبيض في الشوارع والأزقة . بينما اكتظت دكاكين الباعة بكل ما تطلبه النفس : حرائر ، وهدايا مصنوعة في الأراضي المقدسة ، وشواء زكي الرائحة ، وفاكهة تشد اليها النظر . ويلفت نظرك في مكان آخر عمال النظافة جادون في أعمالهم ، والكشافة من أبناء المدارس منهمكون في ارشاد حاج . وان صعدت النظر قليلا لفت نظرك مستوصفات تقدم العلاج مجانا ، وعربات الهلال الأحمر الاسلامية ، ومجالس الافتاء وقد جلس كل عالم وحوله جمع من الحجيج يسأله كل منهم ما عن له من أحكام نسكه . أيام فريدة ترى فيها التسامح والتعاطف ونبذ الألقاب والبعد عن اللغو من القول « **من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه** » .

وينتهي الحج بطواف الوداع بعد قضاء أيام التشريق في منى .

وتجتمع اللجنة الصحية العليا للحجاج التي تضم أطباء من البلدان الاسلامية ، فتقرر سلامة الحج ونظافته من جميع الأمراض الوبائية والمحجرية .

وبعد ، فما أحرانا بالتأمل في حكمة الحج والاستفادة من مؤتمره فيما يعود على الأمة الاسلامية بالخير ، والتخلق بالأخلاق التي دعا الباري الى اعتناقها في موسمه

رئيس التحرير ■

(١٥) المشعر الحرام أو جمعا

الحج مؤتمر اسلامي كبير

بقلم الاستاذ محمد سعيد العامودي

قال الله تعالى في كتابه المجيد : **« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربه »** .

وبهذا الأمر الكريم تلقى نبي الله وخليله سيدنا ابراهيم الأذان في الناس بالحج ، منذ أن أتم هو وولده سيدنا اسماعيل — عليهما السلام — بناء البيت الحرام ، امتثالا لأمر الله ، ليكون هذا البيت المطهر مثابة للناس وأمنا .. اليه يتوافد المؤمنون ، وفي جواره يؤدون شعائر الله .. يطوفون به ، ويحجون الى عرفة ، ويقومون بسائر المناسك ، ويلتمسون من ربهم وخالقهم ، المعبود وحده دون سواه ، العفو والغفران .

الى بيت الله يتوافدون ، وفي رحابه يتعبدون ، لا يشغلهم سوى الذكر والدعاء ، والتهليل والتكبير ، تتصاعد ألسنتهم بالتلبية ، صادرة من أعماق قلوبهم : **« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك »** .

وكانت دعوة الخليل — قبل ذلك — لربه عندما أزمع على الرحيل من مكة تاركا فيها ولده اسماعيل وأمه هاجر ، كما جاء في الذكر الحكيم ، **« ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »** .

أجاب الله دعاء الخليل . وأضحت مكة منذ ذلك الحين ، بلد الله الأمين ، اليها تشد الرحال ، وعلى أرضها المشرفة ، يتلاقى الوافدون ...

ويمضي الزمن .. وتتوالى العصور ، ويظل الحج لمئات ومئات من السنين يؤديه الوافدون على نهج ابراهيم ...

ومع مضي الزمن ، ومع تتابع العهود والعصور ، تتغير أمور ، وتجيء الوثنية .. الى أرض الطهر .. فيتبدل الوضع حينئذ .. ويضيف الوثنيون على أعمال الحج زيادات غيرت من أصولها ، وشوهت من صورتها .. زيادات ما أنزل الله بها من سلطان ، من شرك ، ومن عبادة لغير الله ، الى غير ذلك من ألوان التبديل والتحريف .

لقد دام ذلك فترة من الزمن في عهد الجاهلية العربية .. فعاد الحج شيئا آخر .. شيئا يختلف عما كان عليه في عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .

وجاء الاسلام الحنيف ، وأشرق نوره في الوجود . جاء ليحيي دين الحنيفية الحق ، ويقضي على الشرك ، ويقاوم كل أنواع الانحراف ، وليعيد الى الحج صورته الأولى .. ليعيد اليه حرماته وأصوله وأسسه .

جاء ليجعل من الحج الى بيت الله الحرام . الركن الخامس من أركانه الخمسة ، جاء ليفرضه مرة في العمر على كل من استطاع اليه سبيلا . قال تعالى : **« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين »** .

أنزلت هذه الآية الكريمة في السنة التاسعة من الهجرة . وفي هذه السنة أمر الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، أبا بكر أن يحج بالناس ، ثم بعث في إثره علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ليتلو على الناس سورة براءة ، ثم كانت حجته صلوات الله عليه وسلامه ، في السنة العاشرة وهي حجة الوداع وأول حجة في الاسلام قادها الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

وفي حجة الوداع ، وفي ذلك اليوم المشهود ، يوم الحج الأكبر ، خطب الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، خطبة الوداع ، بين فيها الأسس التي يقوم عليها الاسلام ، وأعلن فيها حقوق الانسان لأول مرة في تاريخ الانسان !

كانت خطبة الوداع دستورا شاملا للمسلمين ، دستورا مستمدا من القرآن ، كانت نبراسا



جلالة الفيصل المعظم يلقي خطابا في الوفود الاسلامية في اليوم السابع من ذي الحجة عام ١٣٨٩هـ .

يسيرون على ضوئه ، ليحظوا بذلك بسعادتي الدنيا والآخرة ، ويكونوا — كما أراد الله لهم — خير أمة أخرجت للناس .

أرشدهم فيها رسولهم الكريم الى احترام الحقوق ، ونهاهم عن الربا ، وهو من أعظم الموبقات ، وأوصاهم بالمرأة ، وأوضح ما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وأكد على وجوب صيانة روابط الأخوة بين المؤمنين ، على أساس من المساواة والعدل ، ودون نظر الى عنصر أو لون .

فأية عدالة هذه ؟ بل أية مثالية هذه في حسن المعاملة ، وصيانة الحقوق ؟

انها عدالة الاسلام ، ومثالية الاسلام .

مثالية لا يمكن أن تسمو اليها في عدلها الالهي ، أية قوانين من صنع البشر ، أو أية فلسفات !

مثالية تحقق بها الخلود للاسلام . فأصبح دينا للانسانية في كل زمان ومكان ، دينا للعبادة والحياة ، للقوة والنماء ، والتقدم في كل ميدان .

فرض الله الحج ، عبادة من أشرف العبادات ، ووسيلة للتعارف ، ووسيلة لاتحاد المسلمين .

وفي كل هذا الذي يؤديه المسلمون في الحج ، على صعيد واحد ، وفي أيام معلومات ، من عبادة لخالقهم ، بعيدين عن أهلهم وديارهم ، وفيما يظفرون به مضافا الى ذلك ، من تعارف وتقارب ، في كل ذلك من شهود المنافع — كما جاء في القرآن الكريم — ما يفوق الحصر ، ولا تحده حدود !

أجل .. ففي أيام الحج يتعارف المسلمون ، فتنمو روابطهم ، وتقوى صلاتهم ، ويتأكد المعنى الجليل لوحدتهم الاسلامية .

في يوم عرفة .. يوم الحج الأكبر ، يكون هناك لقاء ، ويا له من لقاء !

لقاء تتمثل فيه الوحدة ، كأروع وأجمل ما تكون !

انه لقاء العبودية لله ، والأخوة في الله ، لقاء المساواة في كل مظهر ، وفي كل خطوة وكل حركة وكل اتجاه .. فلا كبير ولا صغير ، ولا غني ولا فقير ، ولا سائد ولا مسود ، بل الكل سواء ، في خضوعهم لربهم ، يلتمسون رضاه ، ويرجون منه المغفرة .

وفي هذا اللقاء . أو في هذا الالتقاء ، كما يقول الكاتب الاسلامي السيد أبو الحسن الندوي : « في هذا الالتقاء الديني الروحي الذي لا نظير له على وجه الأرض ... وفي هذا الضجيج من الدعاء والذكر والتلبية والاستغفار ، ما يعيد الحياة الى القلوب الميتة ، ويحرك الهمم الفاترة ، وينبه النفوس الخامدة ، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت أو كادت تنطفيء ، ويجلب رحمة الله » .

ان هذا اللقاء .. أو هذا الالتقاء ، خليق به أن يصفه واصفوه ، أنه المؤتمر الأكبر لأمة الاسلام .

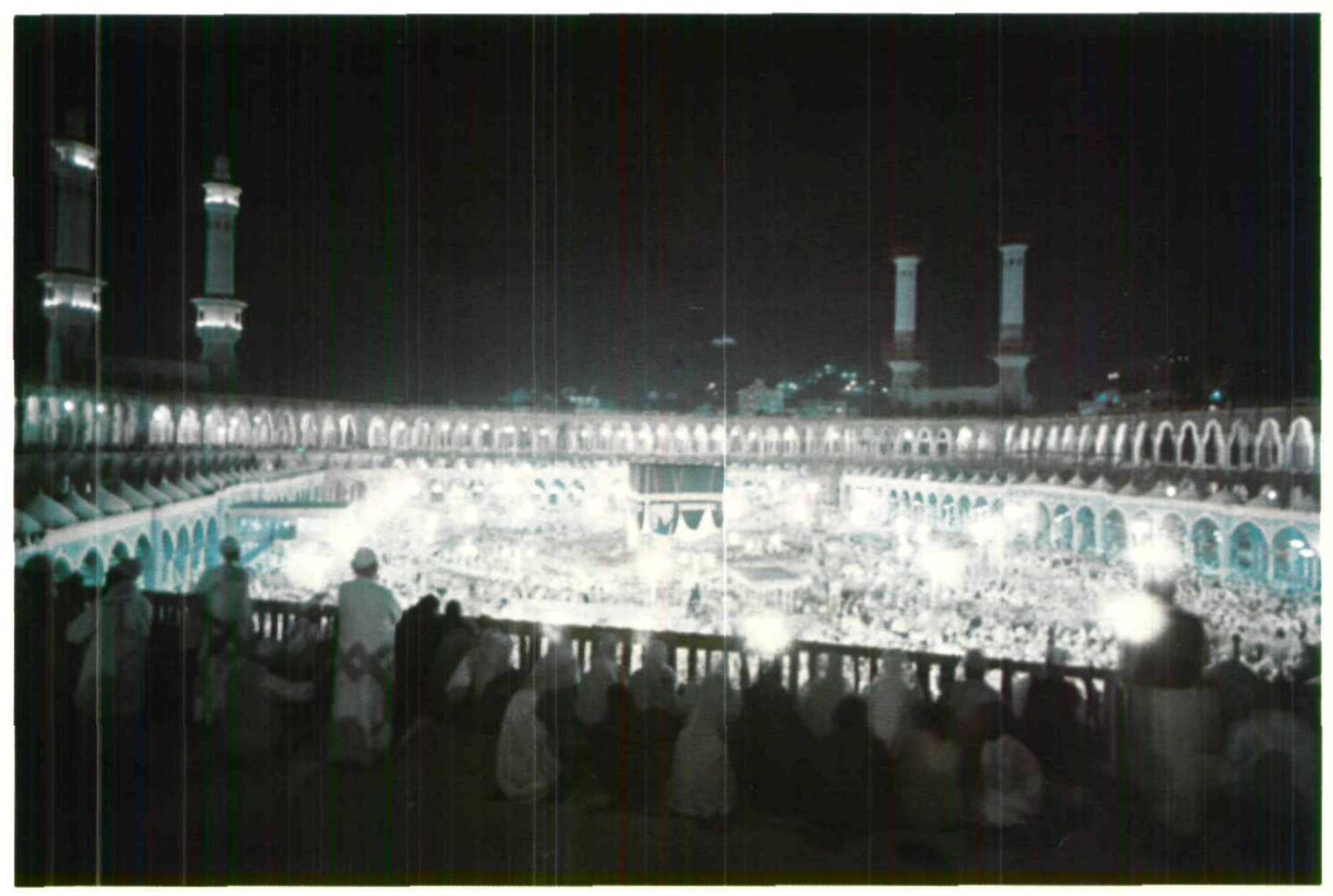
انه ، لا شك ، أكبر مؤتمر ، في تمثيله لسائر الجنسيات ، ولجميع البلدان .

وتلك أعظم منافع يشهدها الحجيج ، ويشارك فيها معهم كل المسلمين .

يشهدونها في مهد الاسلام ، ومركز الدائرة في العالم الاسلامي .

ثم أنه من الواضح أن من سمات هذا المؤتمر أنه بعيد عن تقاليد الرسميات ، وبعبارة أوضح عن تقاليد المؤتمرات ، فلا جدول أعمال فيه ، ولا تصدر عنه قرارات أو توصيات .. وانما كل ما فيه هو التعارف والتعاطف .. والحفاظ على الوحدة ...

يتواصى ضيوف الرحمن فيه ، بأن يتعاونوا على الخير ، وأن يحرص المسلمون دوما في سائر أوطانهم على أن تظل فيما بينهم رابطتهم الكبرى هذه : بنيانها شامخ ، ولواؤها مرفوع .. وأن يأخذوا بأسباب التقدم ، ويذودوا عن اسلامهم وكيانهم ، موحدي الكلمة والرأي لا يعتدون على أحد ، كما لا يقبلون أن يعتدى عليهم أحد .. ينشدون السلام للجميع على أساس من الحرية للجميع ، والعدالة للجميع .. ■



هكذا يبدو الحرم الشريف في مكة المكرمة بعد التوسعة السعودية المكونة من طابقين والتي تتسع لأكثر من مائة ألف مصل .

توسعة وعمارة الحرمين الشريفين في العهد السعودي

بقلم الاستاذ عبدالله الساسي

في سبيل الدين والذكرى . والعمل المجدي لخير المسلمين قاطبة . . ومن اجل الحفاظ على المقدسات الاسلامية ، والتراث الاسلامي الخالد اختمرت اول ما اختمرت فكرة التوسعة في رأس الزعيم الاسلامي الكبير مؤسس المملكة العربية السعودية ورائد نهضتها جلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه . . حيث كان جلالته رحمه الله دائم التفكير في أمر توسعة وعمارة الحرم النبوي الشريف . .

توسعة الحرم النبوي

في سنة ١٣٦٨هـ ، وجه جلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود خطابا مفتوحا موجها الى جريدة المدينة المنورة يبشر فيه العالم الاسلامي بعزمه على توسعة وعمارة الحرم النبوي الشريف ، وقد نشر هذا الخطاب في العدد ٣٠١ من الجريدة نفسها ، الصادر في تاريخ ١٣٦٨/٩/٥هـ .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ المشروع سبيله للبحث والدراسة حتى وصل الى مرحلة التنفيذ ، وفي اليوم الخامس من شهر شوال ١٣٧٠هـ بدىء في تنفيذ التوسعة والعمارة ، وكان أول شيء بدىء به هو هدم الدور والحوانيت المحيطة بالمسجد ، بعد أن عوض أصحابها عنها .

وفي شهر ربيع الأول ١٣٧٢هـ احتفل بوضع الحجر الأساسي لتوسعة وعمارة الحرم النبوي الشريف ، وفي ١٤ شعبان من العام نفسه بوشر في حفر الأساسات بالجناح الغربي من الحرم في المنطقة التي تلي باب الرحمة .

وفي ٢٤ رمضان من العام نفسه بدىء في بناء العمارة الشريفة . ومن ثم أخذ عمل المشروع سبيله في التأسيس والانشاء حيث أنشيء مكتب خاص ضم اليه أكثر من خمسين موظفا يعملون في الأعمال الادارية والفنية والحسابية والمستودعات وغيرها من الأقسام اللازمة للمشروع ، كما شكلت أيضا لجنة خاصة من كبار رجال المدينة المنورة لتقدير أثمان العقارات المنزوعة ملكيتها لصالح المشروع ، وتعويض أصحابها عنها .

وقد بلغت مساحة الأراضي التابعة للدور والأملاك التي انتزعت ملكيتها لصالح التوسعة ، والشوارع والميادين المحيطة بالحرم النبوي (٢٢٩٥٥) مترا مسطحا .

وأنشيء من أجل العمارة مصنع خاص لانتاج حجارة « المزايكو » ، وزود بكامل الأدوات الميكانيكية ، واختير له مكان في منطقة «أبيار علي» حيث جلب له مهندسون أخصائيون وعمل فيه حوالي أربعمائة شخص ..

وقد عمل في مشروع توسعة وعمارة الحرم النبوي الشريف أربعة عشر مهندسا ، بالاضافة الى حوالي ١٧٠٠ عامل وفني من بينهم أكثر من ألف وخمسمائة عامل سعودي .. كما استخدم فيه أكثر من أربعين قطعة من الآلات الرافعة والتركتورات « الجرارات » والسيارات الضخمة .



المسعى بين الصفا والمروة وقد جرت توسعته للساعين بشكل يسمح لأعداد كبيرة من الحجاج بتأدية هذه الشعيرة الدينية .

مساحة الحرم النبوي

بلغت مساحة الحرم النبوي الشريف منذ أن بناه النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن شملته التوسعة والعمارة السعودية الجديدة بما فيها عمارة الأجزاء القديمة التي هدمت وأعيد بناؤها ومساحة الجهة القبلية الباقية من البناء القديم ، بلغت ١٦٣٢٧ مترا مربعا .
وفيما يلي بيان تفصيلي يمثل الأرقام الصحيحة للمساحات التي شملتها التوسعات عبر التاريخ :

	أمتار مربعة
مساحة الحرم النبوي الشريف حينما بناه النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم	٢٤٧٥
زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه	١١٠٠
زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه	٤٩٦
زيادة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك....................	٢٣٦٩
زيادة الخليفة العباسي المهدي	٢٤٥٠
زيادة الملك الأشرف قايت باي	١٢٠
زيادة السلطان عبدالمجيد خان العثماني..........................	١٢٩٣
مجموع مساحة الحرم النبوي الشريف قبل التوسعة السعودية ...	١٠٣٠٣
مجموع الزيادة السعودية	٦٠٢٤
مجموع مساحة الحرم النبوي بعد التوسعة السعودية	١٦٣٢٧



شملت توسعة صحن المطاف بالمسجد الحرام في مكة المكرمة وضع قبة من البلور على مقام ابراهيم الخليل عليه السلام حيث يتمكن الحاج من رؤية الحجر الذي كان يقف عليه ابراهيم عند بناء الكعبة المشرفة .

أما نفقات توسعة وعمارة الحرم النبوي الشريف فقد بلغت بموجب الاحصاء الدقيق والبيانات الصادرة عن مؤسسة « بن لادن » يرحمه الله (٥٧٩١٠٧٠٧) ريالات سعودية .

وقد استغرق العمل في مشروع التوسعة والعمارة حوالي خمس سنوات تمت بعدها توسعة وعمارة الحرم النبوي الشريف على أكمل وجه ولله الحمد .. والجدير بالذكر أن جلالة المغفور له الملك عبد العزيز كان قد أمر بأن تكون نفقات التوسعة والعمارة على حساب جلالته الخاص .

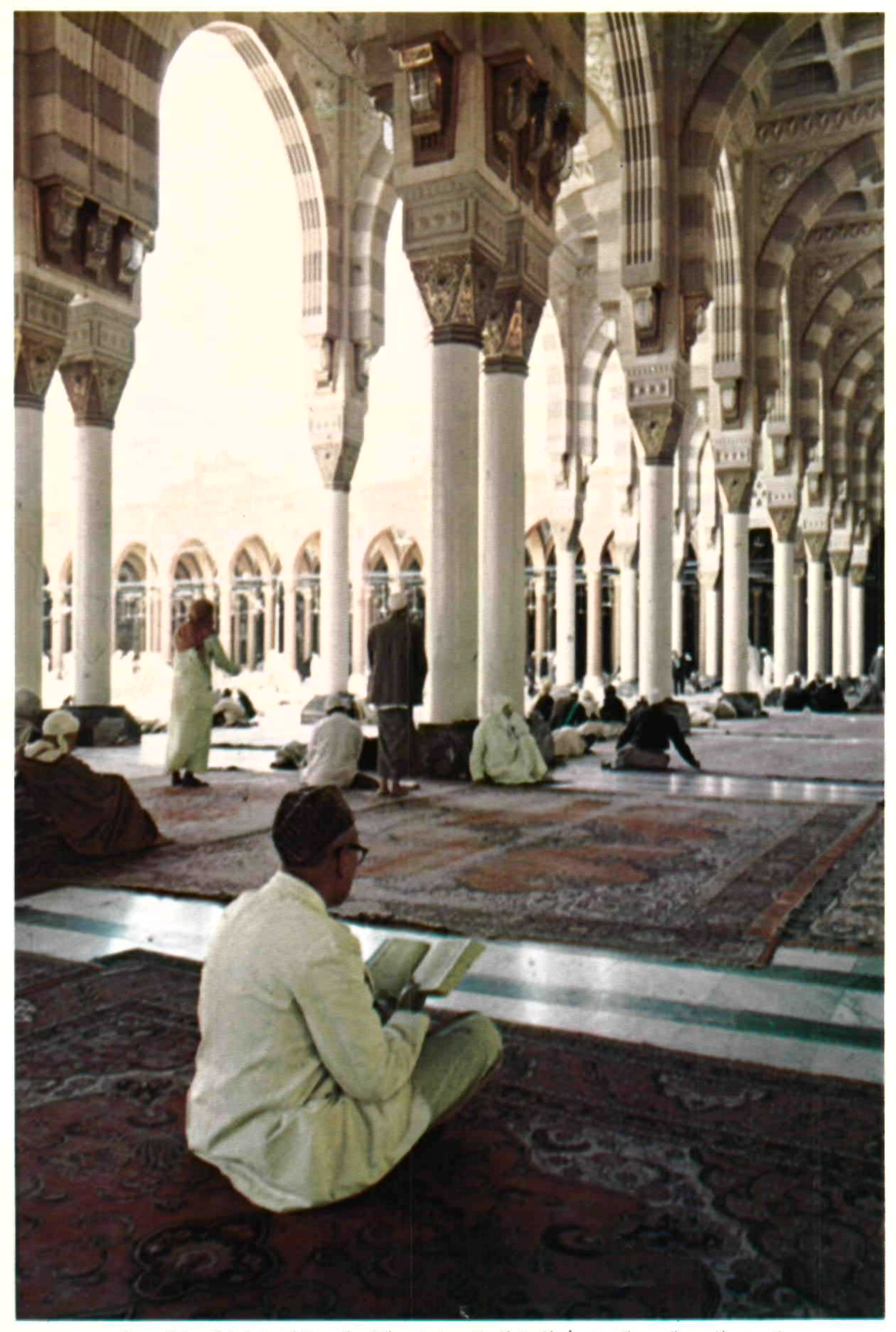
توسعة وعمارة المسجد الحرام

كان المسجد الحرام قائما في قطعة صغيرة من أرض مكة المكرمة ، وذلك منذ رفع ابراهيم قواعد البيت واسماعيل الى أن بعث الله محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، للناس جميعا ، وانتشر الاسلام وأخذ عدد الحجاج يزداد من مختلف أقطار العالم الاسلامي لاداء فريضة الحج ، مما جعل مساحة المسجد تضيق بالحجيج ، فكان من نتيجة ذلك أن أحس قادة المسلمين بوجوب توسعة المسجد لاستيعاب أكبر عدد ممكن من حجاج بيت الله الحرام ، فأخذت الزيادة تتوالى في مساحة المسجد الحرام منذ عهد الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حتى عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله . وفي عام ٣٠٦هـ أي بعد زيادة الخليفة المقتدر بالله ، لم تطرأ أية زيادة على مساحة المسجد الحرام باستثناء بناء الدور من حوله حتى أصبحت جميع الطرق المؤدية الى المسجد ضيقة مما أدى الى الازدحام الزائد في أيام الجمع والأعياد فضلا عن ازدحام موسم الحج الملموس .

وبالنسبة للمسعى فقد فصلت جميع الدور والمباني القائمة بينه وبين المسجد ، وأصبح على مرّ العصور طريقا عاما تقوم على جوانبه مختلف الحوانيت مما جعل عملية السعي شاقة ومثيرة تتطلب كثيرا من اليقظة والحذر تلقاء ما يعانيه الساعي من العنت والهرج والمرج أثناء تأديته شعيرة السعي .

وقد ظل المسجد الحرام على هذه الحال عصورا طويلة الى أن بزغ فجر العهد السعودي الزاهر وصدرت الأوامر العالية من جلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود بتوسعة وعمارة المسجد الحرام ، وقد بوشر في هذه التوسعة عام ١٣٧٥هـ .

ولما كان مشروع توسعة وعمارة المسجد الحرام عظيما هائلا تشكلت له في البداية هيئات ولجان



جانب من المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة حيث ترى العقود الجديدة التي شملتها التوسعة السعودية .

ومكاتب لوضع الخرائط والتصميمات اللازمة للمشروع وللاشراف على تنفيذه وانجاز مراحله .

وقد كان أول عمل فكر فيه المسؤولون عن المشروع ، هو وجوب ادخال الطريق القديم الذي كان يخترق المسعى ، والذي كان يمر من أمام المسجد . وقد جرى تحويله الى ما وراء الصفا خارج حدود التوسعة والعمارة الجديدة . ولما كان الطريق القديم يشكل مجرى للسيول فقد عمل المسؤولون على ايجاد مجرى خاص لتحويل اتجاه السيول الى خارج حدود التوسعة والعمارة ..

وفي الرابع من ربيع الثاني ١٣٧٥ بدىء في تنفيذ المشروع بالتمهيد لأعمال التوسعة وتحويل الطريق واتجاه مجرى السيول في وقت واحد ، كما تم هدم جميع المباني القديمة المحيطة بالحرم في المرحلة الأولى للمشروع ، ثم حفرت أساسات الجدار الخارجي للتوسعة من منطقة المسعى وفي منطقة أجياد من جانب المسعى الى ما يقابل باب أم هانيء من المسجد الحرام .

وفي ٢٣ شعبان ١٣٧٥ احتفل بوضع الحجر الأساسي لأعمال التوسعة والعمارة ، وقد اشترك في الحفل مندوبون عن كثير من البلاد الاسلامية ورجال السلك السياسي الاسلامي ، وعدد كبير من أعيان البلاد ووجهائها وكبار موظفي الدولة ..

ومما يجدر ذكره أن طول المسعى بين الصفا والمروة من الداخل يبلغ ٣٩٤ مترا ونصف المتر وعرضه عشرين مترا . وارتفاع الطابق الأول منه اثني عشر مترا ، والطابق الثاني تسعة أمتار . وقد جعل هذا الأخير مصلى تابعا للمسجد . كما جعل للمسعى الجديد ثمانية أبواب رئيسية تطل على واجهة الشارع الشرقي العام .

وأقيم فوق الصفا سقف مستدير مقبب وبجواره منارة ضخمة يبلغ طولها اثنين وتسعين مترا ، وقد جعلت للمسجد سبع مآذن جديدة ، واحدة فوق باب الصفا واثنتان بباب الملك عبد العزيز ، وأخريان بباب العمرة والمئذنتان الباقيتان بباب السلام الكبير ، وهذه ثلاثة أبواب رئيسية كبيرة شملتها التوسعة الجديدة . كما أقيم على جانبي كل باب سبيلان لسقيا الحجاج من ماء زمزم مباشرة وذلك لتخفيف الضغط على البئر في موسم الحج .

والجدير بالذكر أن المسجد الحرام ، بعد التوسعة السعودية ، أصبح يستوعب نحو ٦٠٠ ألف مصل بعد أن كان يتسع لـ ٥٠٠ ألف مصل .

مساحة المسجد الحرام

كانت مساحة المسجد الحرام قبل التوسعة تقدر بتسعة وعشرين ألفا ومائة وسبعة وعشرين مترا مسطحا ، وقد بلغت الآن بعد التوسعة مائة وتسعين ألف متر مسطح بما في ذلك الطابقين الرئيسيين ، أي بزيادة قدرها مائة وستون ألفا وثمانمائة وثلاثة وسبعون مترا مسطحا ..

أما نفقات المشروع فقد قدرت بمبلغ ستمائة مليون ريال سعودي بما في ذلك الأعمال الانشائية والتعويضات عن العقارات التي انتزعت ملكيتها لصالح المشروع .

توسعة واصلاحات داخل المسجد الحرام

لما كان المطاف حول الكعبة المشرفة يضيق بالطائفين خصوصا في موسم الحج ، وعند مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام ، وكذلك عند مبنى بئر زمزم . فقد أزيل المبنى الكبير الذي كان قائما فوق بئر زمزم ليكشف عن الكعبة من الجهة الشرقية ، وليجعل بئر زمزم من أسفل حيث ينزل الحجاج عبر درج خاص .

وبالنسبة لمقام سيدنا ابراهيم عليه السلام ، فقد أمر جلالة الملك فيصل حفظه الله ، بازالة الغطاء الموجود فوق المقام ووضع غطاء بلوري خاص بدلا منه ، يغطيه قفص حديدي ذو حجم صغير يسمح بتوسعة المطاف من جهة ، كما يمكن الحجاج من مشاهدة الحجر الذي كان يقف عليه سيدنا ابراهيم أثناء قيامه ببناء الكعبة المشرفة ، وعليه آثار قدميه .

وفي شهر رجب من عام ١٣٨٧هـ ، تشرف جلالة الفيصل المعظم بازاحة الستار عن الغطاء البلوري الجديد لصحن المطاف في احتفال رسمي شارك فيه مندوبون عن بعض البلاد الاسلامية ، وعدد كبير من علماء الدين في المملكة ، ورجال السلك السياسي العربي والاسلامي .

كما نقل ، لأجل توسعة المطاف ، المنبر من مكانه الى الناحية الشرقية محاذيا لمكانه السابق . وبهذه التوسعة أصبح المطاف ولله الحمد رحبا واسعا للطائفين .

ترميم الكعبة المشرفة

لما كان العمل جاريا في توسعة وعمارة المسجد الحرام ، ظهر بعض الخلل والتصدع في بناء الكعبة المشرفة وسقفها وبعض جدرانها . فصدر على اثر ذلك الأمر السامي الكريم بتأليف لجنة من العلماء والخبراء والفنيين للكشف عن مواضع الخلل والتصدع ، واقتراح الحلول الناجعة لاصلاحها ، وقد كان مما لاحظته هذه اللجنة أن للكعبة سقفين من الخشب يفصل بينهما فراغ مساحته متر واحد وخمسة وثلاثون سنتمترا ، وان معظم الأخشاب قد تآكل مع مرور الزمن ، كما ظهر في الجدارين الشمالي والغربي من الكعبة تصدع وشقوق . ونتيجة لذلك فقد جرت الاصلاحات التالية :

- ازالة السقف الأعلى واشادة سقف جديد بدلا منه .
- ازالة السقف الأسفل وتجديده على وضعه السابق .
- عمل « ميدة » على الجدار وبين السقفين .
- ترميم الجدران المتصدعة .
- ترميم الكسوة الرخامية التي على الجدار من الداخل وتثبيتها .

وقد اشترط في عمل ترميم الكعبة المشرفة ما يأتي :

- أن لا يظهر من « الميدة » التي تقع بين السقفين شيء زائد عن سمك الحيطان حتى لا يزاد في بيت الله ما لم يكن فيه .
- أن لا يحلى سقف الكعبة أو يموه بذهب أو فضة .
- أن تكون المواد التي تستخدم في أعمال الترميم من المواد المحلية .
- أن تستبدل الأخشاب التالفة بغيرها من أجود أصناف الخشب الهندي .

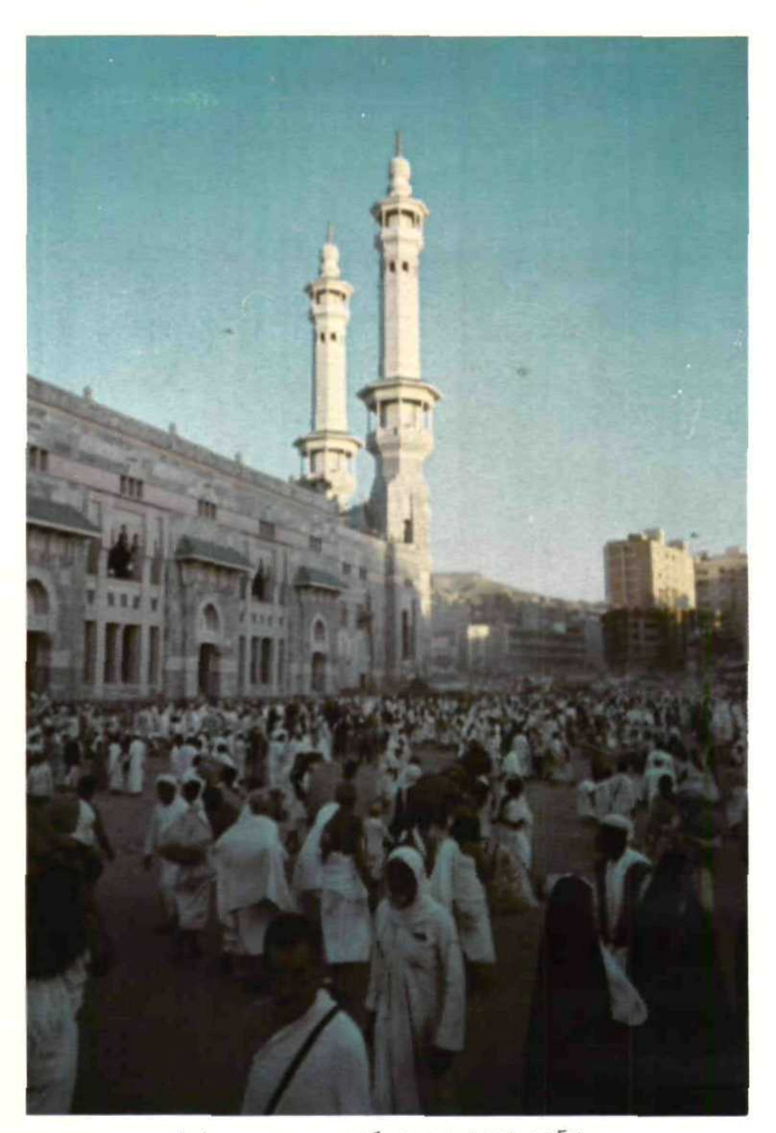
هذا وقد بوشر في أعمال ترميم الكعبة المشرفة في صباح يوم الجمعة الموافق ١٨ رجب ١٣٧٧هـ في احتفال رسمي ترأسه صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز ولي العهد يومذاك .

وفي يوم السبت الموافق ١١ شعبان ١٣٧٧هـ احتفل بوضع آخر حجر في الكسوة الرخامية التي على جدار الكعبة في حفل كبير دعى اليه الممثلون السياسيون للدول العربية والاسلامية وقد كان ذلك ايذانا بانتهاء مراحل العمل في ترميم الكعبة المشرفة ..

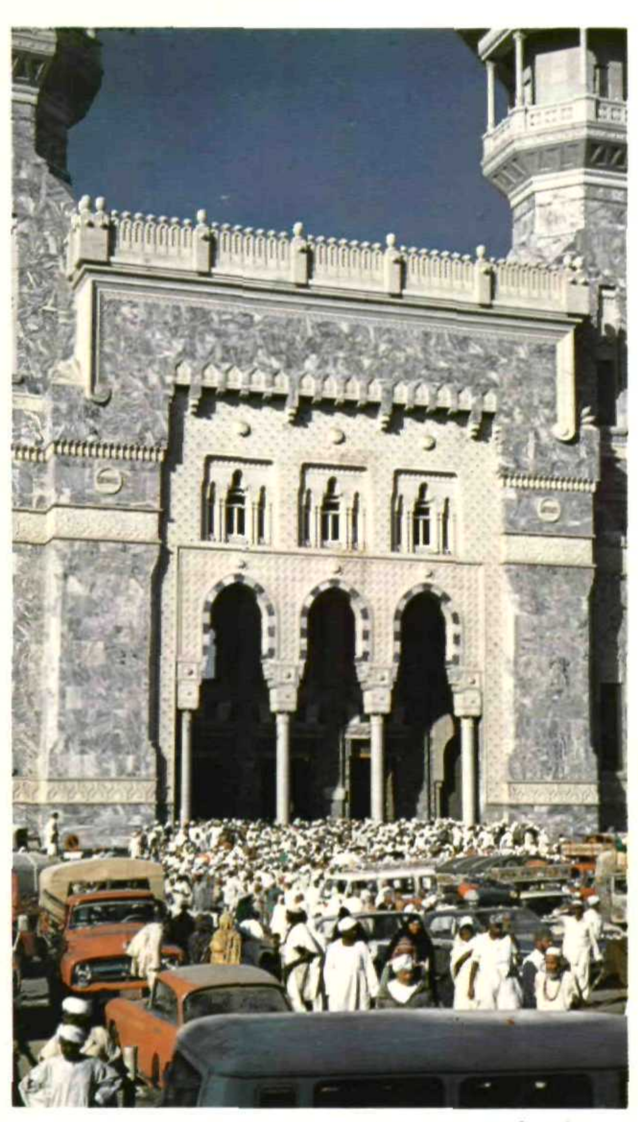
ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن جدران العمارة الجديدة قد كسيت بالمرمر والأحجار الصناعية المزخرفة والأعمدة الرخامية والمزايكو .. والتي جلبت محليا من « وادي فاطمة » . و « مدركة » وغيرهما .

فهرست المجلد الثامن عشر

١٣٩٠



المآذن العالية الرشيقة كانت من ضمن مراحل مشروع التوسعة السعودية للمسجد الحرام .



أحد أبواب المسجد الحرام وقد رصفت واجهته بالرخام .

ولقد تقرر ابقاء مبنى الحرم القديم كأثر من الآثار القديمة ، وقد تم التنسيق بين المبنى القديم والمبنى الجديد من جميع الجهات ...

وعلى اعتبار التوسعة والعمارة الجديدة للمسجد الحرام وازدياد عدد الحجاج الوافدين من مختلف البلاد الاسلامية بسياراتهم ووسائل انتقالهم . فقد أنشيء حول المسجد الحرام خمسة ميادين فسيحة لاستيعاب سيارات الحجاج الى حين انتهائهم من تأدية مناسكهم . وهذه الميادين هي : ميدان الملك عبد العزيز ، وميدان ابراهيم ، وميدان باب العمرة ، وميدان القشاشية ، وميدان القرارة .

وتدرس الحكومة الرشيدة الآن انشاء ميادين أخرى حول المسجد الحرام لاستيعاب العدد الضخم من السيارات . ولقد روعي في هذه الميادين أن تكون آمنة للحجاج أثناء خروجهم من الصلاة والمناسك ، وقد حفرت لذلك أنفاق تحت الأرض تسمح بمرور الحجاج في أمان دون أن يتعرضوا لحركة المرور وزحام السيارات . وقد بلغ عدد هذه الأنفاق ستة .

كما بنيت دورات مياه (ميضآت) بعضها تحت سطح الأرض والبعض فوقه وذلك لتأدية فرائض الوضوء .

ولما كانت السيول والأمطار تداهم المسجد ، وخاصة من ناحية وادي ابراهيم والقشاشية . فقد خفض منسوب شارع القشاشية ، وأنشيء لذلك نفق كبير لمرور السيل يبدأ من تحت المسعى من ناحية دار الأرقم ويمر من تحت المسجد ثم ميدان الملك عبد العزيز ثم الى حي المسفلة . وقد بلغ طول هذا النفق المذكور اثني عشر كيلومترا وعرضه أربعة أمتار . وارتفاعه بين أربعة وستة أمتار . كما أنشيء نفق آخر للسيل تحت مبنى المسجد أيضا يبدأ من باب السلام ويلتقي بالنفق الرئيسي عند ميدان باب الملك .

وتجري الآن دراسة جديدة لانشاء نفق آخر يتصل بالنفق الرئيسي من ميدان باب الملك ، ويمر من شارع المسيال الى حي المسفلة يبلغ طوله نحو خمسة كيلومترات ، وعرضه أربعة أمتار ، وارتفاعه أربعة أمتار أيضا . ■

الحج في الأدب العربي

بقلم الاستاذ عبد القدوس الأنصاري

الأن الحج – في الجاهلية والاسلام – عبادة تشتمل على تراتيب مقررة ، وحركات متتالية ، ودعوات وابتهالات معينة وغير معينة ، عند شعائر معروفة بمكة ومنى ومزدلفة وعرفة . ولا بد فيها من اجتماع أفراد وجماعات في أيام وليال . وفي زيارات واسمار – وتبادل منافع وتعاطي تجارة وبيع وشراء . فمن الطبيعي أن يكون للأدب بنوعيه : الشعر والنثر دخل في تسجيل العواطف والمعتقدات والابتهالات والخيالات وما يعجب من المشاهد أية كانت .

وموضوع « الأدب في الحج » موضوع واسع ، لا تكفيه المقالة ولا المقالتان ، بل ينبغي أن يفرد له كتاب ضخم حافل . ونحن هنا سنعرض قطرات من بحر زاخر ، وذرات من عالم أدبي كبير .. على قاعدة .. « ما لا يدرك كله لا يترك كله » .

ومقالنا هذا مقصور على عرض نماذج مقتطفة مما ورد في الحج من أدب الشعر ، في الجاهلية وفي الاسلام ، في فجره وصبحه وفي ضحاه وقيلولته وظهره ، وفي عصرنا الحاضر – مع تعليقات خفيفة على ما يستحسن التعليق عليه .

ويبدو لي أن من أكثر شعراء الجاهلية عناية بالحج : « زياد بن معاوية الذبياني » الملقب بالنابغة الذبياني . فقد أعطانا وصفا متكاملا أو شبه متكامل للحجة التي قام بها على ناقته هو ونفر من قومه ، قاموا برواحلهم معه من بادية شمال المدينة ، صوب مكة ، بجنوبها .. وهي مسافة طويلة كانت أعناق الابل تتقطع فيها ، فقد قال : « لهن رذايا بالطريق ودائع » .

وقد بدأ النابغة قصيدته بالنسيب المعتاد . وقد صاغه صياغة جميلة . ومما ورد في هذا النسيب من روائع الغزل الوصفي قوله في حسناء « بلي » التي تغزل بها في مقدمة قصيدته :

غراء أكمل من يمشي على قدم
حسنا وأملح من حاورته الكلما

وقد أبدى للبلوية الحسناء أنهم الآن ليسوا بحالة لهو وغزل ، فالدين يحرم هذا اللهو عليهم ، لأنهم حجاج بيت الله الحرام ، وهم الآن في عبادة وطاعة . مشمرين ، وممتطين نوقا غارت عيونها من طول السير والسرى ، وهم في حجّهم هذا انما يرجون مثوبة الاله ، ويرجون بره وغيثه الذي يثمر لهم طعامهم . وبالمناسبة فقد مضى مع طبيعة الحديث ذي الشجون فحدثها عن كثرة أسفاره في البراري ، وكرمه في أوقات الشتاء الشديد البرد والجوع على الناس . ولما أكمل حديثه الجاد الهادف معها عاد الى حديث الحج ووصف مشاهداته في طريقه الى الحج . فهذه « فتاة »

من بنات حرم مكة تعترض طريق ركبهم طالبة منهم أن يبتاعوا منها جلودا لها لا بد أنها أصلحتها ودبغتها لتبيعها في موسم الحج على العرب الوافدين من كل جانب ، وقد كان جوابه لها مماثلا لجوابه لفتاة بليّ الحسناء : قال لها : ان حبل البيع الآن مقطوع لأننا حجاج ، والحاج ليس من شأنه أن يشتغل بالبيع ، مهمته أن ينصرف بكليته الى الحج ، على ما كان من تقاليدهم ، في الجاهلية .. قال :

كادت تساقطنـــي رحـــلي وميثرتـــي
بـــذي المجاز ولـــم تحسس به نعما
من قول حرمية قالت — وقد ظعنوا :
هل في مخفيكم من يشتري أدما ؟
قلت لها — وهي تسعى تحت لبتها :
لا تحطمنـك ان البـيـع قـد زرما

وفي قصيدتين سياسيتين اعتذاريتين قدمهمـــا للنعمان بن المنذر ملك الحيرة نراه يعاود الالمام بشؤون الحج . واحدى القصيدتين (عينية) .. وقد سلط فيها على اعتذاره أضواء كاشفة لعمق صدقه في عذره وعمق اخلاصه للنعمان — وكان قوم من عداته قد وشوا به للنعمان . وأبلغوه عنه كلاما غير لائق .. وتأكيدا لكذب هؤلاء الوشاة وتوطيدا لدعائم صدقه في تكذيبهم ، نراه يحلف للنعمان — على دأب العرب الجاهليين — بالنوق المتصاحبات في قوافل ، ماضية متجهة في سيرها المتدافع صوب ألال . وألال هو : جبل عرفة — الذي يدعوه بعض الناس اليوم جبل الرحمة .

حلف له بتلك النوق المتدافعات فـــي سيرهن ، السريعات التي تبارى الريح في سرعتها ، حالة كون عيونها غائرة من طول السير والسرى ، وعليها حجاج شعث غبر قاصدون لحجهم في خشوع وتبتل ، فهن تحتهم مثل أطراف القسيّ في انحنائها وخضوعها — حلف له بذلك المشهد أنه مظلوم مجني عليه في هذه الأقوال الزائفة . وحالته بالنسبة لمروجيها الآمنين مثل حالة الجمل المصاب بداء العرُ ، يكوى غيره من الجمال السليمة ، ويترك هو راتعا في المرعى الخصيب بدون أن يتعرض للكي كما تعرض له غيره ، مع أنه هو المصاب الذي يستحق الكي وغيره سليم لا يستحق هذا العذاب بالنار قال :

حلفت فلـــم أترك لنفسك ريبـــة
وهل يأثمن ذو امـــة وهو طائع ؟!
بمصطحبات مـــن لصاف وثـــبرة
يـــزرن ألالاً سيرهـــن التدافـــع
سماما تبارى الريـــح خوصا عيونـها
لهـــن رذايـــا بالطريق ودائـــــع
عليهن شعث عامـــدون لحجهـــم
فهن كأطـــراف الحنـــي خواضع
لكلفتـــني ذنـــب امرىء وتركتـه
كذي العر يكوى غيره وهو راتـــع

وفي « معلقته » الدالية الـــتي قدمها اعتذارا للنعمان في بعض ما بلغه عنه نراه هنا يؤكد لمخاطبه صحة اعتذاره بيمين يقسمها بالخالق الذي أمن الطيور اللاجئات الى مكة — من الصيد ، فهن حوائم آمنة على نفسها فيما بين أجمة الغيل والسعد الواقعة بين مكـــة ومنى يومئذ .. يقول :

والمؤمن العائـــذات الطير تمسحهـــا
ركبان مكة بين الغيل والسعـــد
ما قلت من سيىء ممـــا رميت بـــه
اذن فلا رفعت سوطـــي اليّ يـــدي

وفي « فجر » الاسلام ، نرى حسان بن ثابت الانصاري ، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، يذكر الحج في شعره ويقول من قصيدة أو مقطوعة في ديوانه :

أنا وما حج الحجيج له : ركبان مكة معشر الأنصار

وقد قال حسان هذه المقطوعة في الدفاع عن خليفة رسول الله الأول ، قاهـــر أهل الردة ، ومثبت دعائم الاسلام بعد النبي ، صلى الله عليه وسلم : أبي بكر الصديق .. صاحب رسول الله في الغار وفي هجرته من مكة الى المدينة ، وذلك ازاء الحملات العنيفة التي كان يشنها عليه مرتدو العرب الذين لم يرض منهم الا أن يعودوا الى حظيرة الاسلام وأن يؤدوا ما عليهم من حقوق لله جل وعز .. اداء شاملا كاملا .

واذا ذكر الحج في الأدب العربي ، فان القارىء يتطلع الى عمر بن ابي ربيعة الشاعر القرشي الغزل نزيل مكة في صبح الاسلام .. ففي شعره الشيء الكثير عن الحج ومن ذلك قوله :

لكنهم زادنا وجدا بهم كلف
ومترع من رجيع الدمع مبتدر
وأنهــا حلفت بالله جاهــدة
وما أهــل لـه الحجاج واعتمروا
ما وافق النفس من شيء تسر بـه
وأعجب العين الا فوقـه عمر
فــذاك أنزلهــا عنـدي بمنزلـة
ما كان يحتلها من قبلها بشر

و « هذه » هي احدى الحاجات رآها عمر بجنب الخيف وبالمحصب من منى . فهام وجدا بجمالها الفتان .. فقال :

رأيت بجنب الخيف هندا فراقنــ
ي لها جيد ريم زينته الصرائـم
وذو أشر عــذب ، كأن نباتــه
جنى أقحوان نبـته متنـاعـم
نظــرت اليها بالمحصب مــن منى
ولي نظــر لولا التحرج عــارم
فقلت أشمس أم مصابيــح بيعــة
بدت لك تحت السجف أم أنت حالم ؟
مهفهفة غـراء ، صفر وشاحها
وفي المرط منها أهيل متراكــم
بعيدة مهوى القــرط اما لنوفل
أبوها ، واما عبد شمس وهــاشم

ونرى عمر بن أبي ربيعة هنا تشده الى غض النظر فضيلة الدين الاسلامي ، فنظره الى هند اذ ذاك كان عارما لولا التحرج الذي لحق به حينئذ ..

« وام الهيثم » أو « عُثَيم » قدم فيهــا قصيدة من غرر شعره في أيام الحج ، وربما كانت قصته معها خيالية ، وربما كانت حقيقية . يقول :

لا والــذي بعث النــبي محمدا
بالنـور والاسلام ديــن القيــم
وبما أهل بــه الحجيج وكبروا
عند المقام وركن بيــت المحرم
والمسجد الأقصى المبــارك حولــه
والطور — حلفة صادق لــم يأثم
ما خنت عهدك يا « عثيم » ولا هفا
قلبي الى وصل لغيرك فاعلمــي

وكان قد كناها من قبل ، في مطلع القصيدة بأم الهيثم :

باسم الالــه تحيــة لمتـيم
تهدى الى حسن القــوام مكــرم
وصحيفــة ضمنتــها بأمانــة
عند الرحيل اليك ، « أم الهيثم » !

وفي احــداهن التي ضن علينا باسمها يقول :

أشارت اليــنا بالبــنان تحية
فــرد عليهــا مثل ذاك بنــان
فقالت — واهل الخيف قد حان منهم
خفوف (١) ، وما يبدي المقال لسان :
نوى غربــة قد كنت أيقنت أنها
وجدك ، فيها عن نواك شطان(٢)
تعال فـزرنــا زورة قبل بيننــا
فقد غاب عنا من نخاف جبان
فقلت لها : خير اللقاء ببلــدة
من الأرض لا يخشى بها الحدثان

وكما كان عمر بن أبي ربيعة شاعرا مكيا غزلا ، فكذلك كان عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بلقب « العرجي » وهو حفيد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أو ابن حفيده على رواية أخرى . وقد كان الشاعران الغزلان يعيشان في قرن واحد ، هو القرن الهجري الثاني : « ضحى الاسلام » . وقال الناقدون في التمييز بينهما : ان عمر عفّ ، وأما العرجي فماجن .. وشعرهما معا من نوع غزل « الحب اللاهي » كما يقول واضعا مقدمة ديوان العرجي : خضر الطائي ورشيد العبيدي .

روي أن ابن ميزن المغني ، مر بحلقة كان ابن جريج يحدث فيها ، وعنده جماعة من أهل العراق فيهم الرجل الصالح عبد الله بن المبارك ، فدعاه ابن جريج ، وطلب أن يسمعه شيئا من الغناء فقال له : اختر ثلاثة أصوات لا أزيدك عليها . فقال : أريد الصوت الذي غناه ابن سريج ، على جمرة العقبة ثاني أيام منى ، فقطع الطريق حتى تكسرت المحامل . فغناه قول العرجي :

عوجــي عــليّ فسلمي جبر
فيــم الصدود وأنتم السفر ؟ !
مــا نلتقي الا ثلاث منــى
حتــى يفرق بيـــننـا النفر
الحــول بعد الشهر يتبـعه
ما الدهر الا الحــول والشهــر

فاستعاده ابن جريج ، استحسانا . فقال : عليّ أن يكون من الثلاثة ؟ فقال : نعم ! فأعاده ، ثم استعاده ثالثة على ذلك الشرط فأعاده ..

(١) شارعون في الارتحال بعد انتهائهم من النسك (٢) بمعنى : بعد ، من شطن : بمعنى بعد .



هــذا ومما تجدر ملاحظته ههنا أنه قــد وردت في ديوان عمر بن أبي ربيعــة(٣) ثلاثة الأبيات الأولى من القصيدة التي مطلعها :

عوجــي عليّ وسلمــي جبر
فيــم الصدود وأنــتم سفر ؟ !

كما وردت الأبيات ذاتها في مستهل قصيدة من اثنين وعشرين بيتا – في ديوان العرجي . (٤)
وللعرجي قصيدة مطولة (جيمية القافية) مطلعها :

عوجــي علينــا ربــة الهــودج
انــك ان لا تفعــلي تحرجــي
أيسر ما قال محب لــدى
بين حبيب قولــه : عــرّج

وللعرجي أبيات يعرض فيها « شريط » ذكرياته في أيام الحج فيقول :

ان امــرءا تعتــاده ذِكــر
منهــا ثلاث منى ، لذو صبر
ومواقــف بــالمشعريــن ، لهــا
ومنــاظــر الجمــرات والنحــر
وافــاضــة الركبــان خلفهــم
مثــل الغمام ارذّ بــالقطــر
حتى استلمن الركــن فــي أنُف
من ليلهن يطــأن فــي الأزر
يقعدن فــي التطواف آونــة
ويطفن أحيانــا عــلى فــتْر
ففرغــن من سبع وقــد جهدت
أحشاؤهــن موائــل الخُمْــر

وللشريف الرضي (٣٥٩-٤٠٦هـ) (٩٦٩-١٠١٥م) قصيدة رائعة في الحج قالها بمناسبة دخول الحجيج الى مدينة السلام في صفر ٣٩٥هـ بعد ما قضوا نسكهم :

عارضا بــي ركب الحجــاز أسائلــ
ــه : متى عهده بسكان سلــع
واستملا حديث من سكن الخيف
ولا تكتــباه الا بدمعــي
فاتنــي أن أرى الديــار بطرفــي
فلعلي أرى الديــار بسمعــي

ولأبي نواس في الحج قصيدة مشهورة ، ضمنها التلبية والدعاء ، وتقديس ذي الجلال . ومطلعها :

الهنا مــا أعدلك مليك كل من ملك
اليك قد لبيت لك
لبيك ان الحمد لك والملك لا شريك لك
ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك

وتعتبر هذه القصيدة من غرائب أبي نواس .. الشاعر الماجن .. ويلوح من نظمه لها أنه قالها وقد شاب .. فلعله تاب وأناب . وسلك طريق الصواب .. والله غفور رحيم ..
ولأحمد شوقي « تائية » أبدع فيها وأمتع .. ومطلعها :

الى عرفات الله يــا خير زائــر
عليــك سلام الله في عرفــات
ويوم تولــي وجهة البيت ناضرا
وسيم مجال البشر والقسمــات
على كل أفق في الحجاز ملائك
تــزف تحايــا الله والبركــات

وللشاعر المكي السعودي حسين عرب ، معارضة جميلة لقصيدة أبي نواس ... وهي أطول نفسا قال :

وهكذا الى أن يقول :

لبيك : يــا رب الحجيج جموعــ
ــه وفــدت علــيــك
ترجــو المثابــة فــي حماك
وتــنــبغــي الزلفى لديــك
لبــيك والآمــال والافضال
مــن نعمــى يديــك
لبّــى لــك العبد المطيــ
ــع وجــاء مبتهــلا اليــك

* * *

هــذي الجمــوع تدفقــت
منــها المسالــك والبطــاح
قطــعــوا لــك الــدأمــاء
والغــبراء واجتــازوا الريــاح
متضرعــيــن الــيــك ،
مستهــديــن يرجــون السمــاح
لبــيك فــي الليــل البهيــم
وفــي الغــدو وفــي الــرواح

* * *

هذا الصباح يضج بالتهليل ، يتبعه الدعــاء
هذا المساء يعج بالتكبير ، يبعثه الرجــاء
في الأرض ، تلبية تفيض بها القلوب الى السماء
لبيك ، في حر الهجير وفي الصباح ، وفي المساء

وهكذا الى ان يقول :

سبحانك اللهم يا حامي حمى البيت الأمين
يا مسبل الرحمات ، تغسل ، من خطايا المذنبين
اياك نعبد مخلصين ، وما بغيرك نستعــين
لبيك ، سبحنا بحمدك ، فاهدنا نهج اليقين

---

(٣) طبع مطبعة السعادة بمصر ، وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص ١٥٩

(٤) ص ٤٢ – ٤٣ طبعة الشركة الاسلامية للطباعة والنشر المحدودة ببغداد وتحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي .

موكب النور

بقلم السيدة جاذبية صدقي

منظر ليلي رائع للمسجد الحرام والكعبة المشرفة وجموع الحجيج في رحاب البيت العتيق .

الله ! كلمة صغيرة ، هي مغزى الوجود . كلمة عظيمة جليلة تثير الوجدان ، وتهز الأعماق ، وترجف القلب والنفس ، والروح !

« **ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** » لا بد للانسان من قدسية في هذه الحياة تلوذ بها روحه عندما تعتصرها مادية دنيانا ، وترف حولها روحه كالفراشة ، تستروح من أنسامها الطاهرة العذبة وتستجلب لنفسها بردا وسلاما وأمنا . فلولا روحانية تملأ قلب المرء منا ، ومشبع بها الوجدان ، ومروية بها الحنايا ، لعصفت بنا العواصف عصفا عسيرا ولتقاذفتنا رياح الأهواء ، قبل أن تذرونا هباء منثورا . وأعظم قدسية روحانية هي : الدين .. الدين بكل ما يمت اليه بصلة من قريب ومن بعيد !

اننا لا نرى الله جهرة ببصرنا ، لكننا نراه ببصيرتنا في كل شيء حولنا ، من صنع يديه ! أو من تعليمه ، أو من ايحائه ، سبحانه !

وابن آدم يعتز ويتيه :

« هذا من صنع يدي .. أنا ! »

وما ابن آدم نفسه — في حقيقته .. سوى آية من آيات فن الصانع الأول . آلة تتحرك وتنتج وتبتكر وتبدع بقدر ما أذن ، وبقدر ما أنعم المنتج المبدع البديع ، سبحانه !

اننا لا نرى الله ، لكننا نستشعره في أعماق قلوبنا عندما تصفو ، وفي حنايا ضمائرنا عندما تصحو ، وفي ثنايا وجداننا عندما يجلو ! نستشعره ونتلمسه ، وتتشبع به أرواحنا .. ويشرئب نحوه ايماننا .

اننا نعرفه سبحانه ، ونشعر به ، ونوقن به ، ونؤمن بالقلب وبالعقل وبالمنطق ونحن نرى الحياة في حفنة ماء يغرغر بها جدول صغير أو عين عذبة متواضعة قد تمر بها ولا تلحظها !

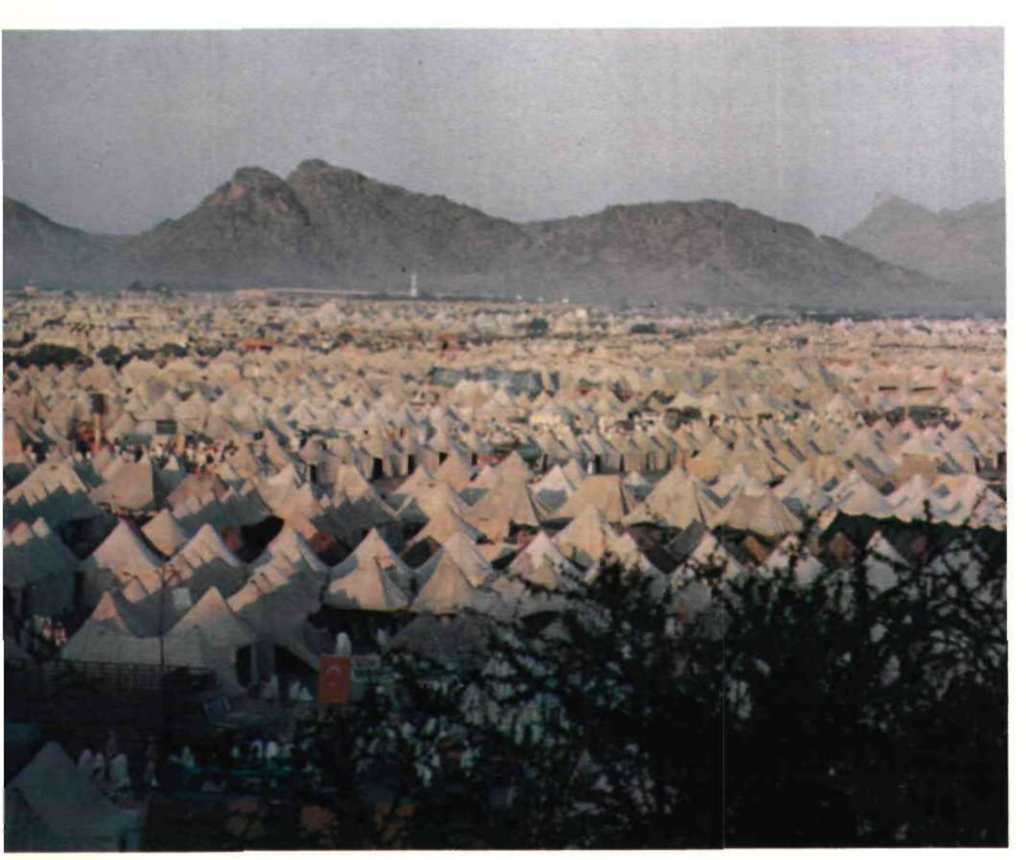
وعندما يتفجر باطن الأرض عن كنوزها ويكشف عن خباياها : قوة ونعمة أخرى في يد ابن آدم ليسيطر بها على الطبيعة حوله ويسود !

وعندما يزلزلك زئير نمر رهيب ويرعبك جبروته ، وفي الوقت عينه تنحني في تبتل لتمسح على فراء حمل وليد هو الصفاء مجسما ، له ثغاء رقيق يهز أعماق قلبك ! وكلا النقيضين من بدع الفنان الأعظم !

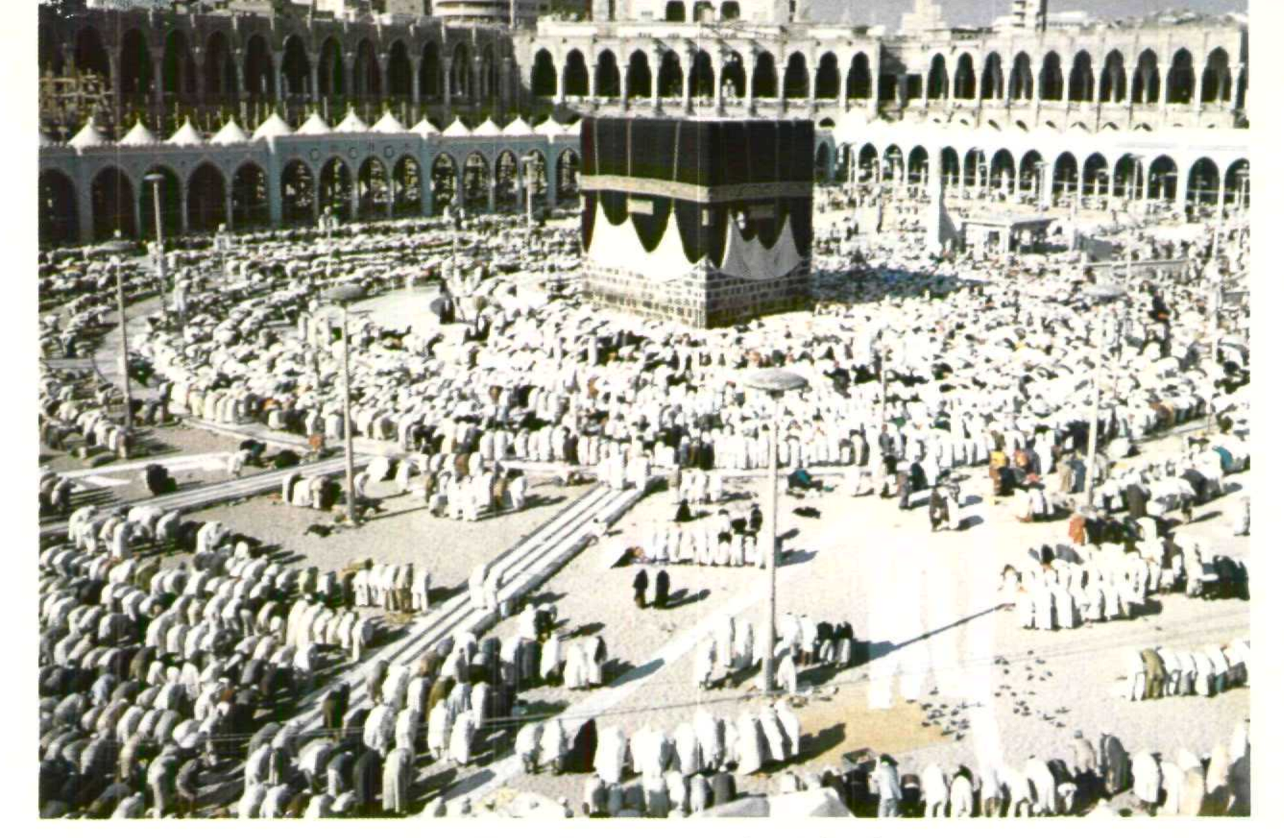
رب العالمين .. آية آيات حبه لنا مثابرته سبحانه على حثنا وتذكيرنا وتطهيرنا لتجلو منا القلوب فتتضوأ أنصع من الفضة بلا ضغينة ، ولا غضب ، ولا حسد ، ولا حقد ! يذكرنا ولا يني يذكرنا حتى لا يؤاخذنا سبحانه بما



بعض الحجيج بملابس الاحرام لدى وصولهم الى مطار جدة .



الحجاج في عرفة .. يرجون الرحمة والمغفرة والرضوان .



« تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

اكتسبت نفوسنا وبما انطوت عليه الضلوع ! لا يني يذكرنا بالفرائض وبأركان دينه الحنيف الشامخة كالأعمدة العتيدة الراسخة !

وقد أكرمني ربي بالحج في العام الماضي .

إن الحج عينه تجربة كبرى ! تجربة روحانية نورانية شفافة ! فيها عذوبة ، وفيها عمق .. فيها خوف وفيها أمن .. فيها رهبة وفيها ألفة عجيبة ، كأنك آت من غربة بعيدة بعيدة طال أمدها ، الى حيث سكنك ، وسكن قلبك ، وسكن نفسك وروحك !

تجربة فريدة في لونها ، ومذاقها ، ووقعها ! تثير في القلب العواطف الرقيقة .

وتدب في داخل القلب أثرها حياة جديدة من لون آخر ! حياة ناصعة تتضوأ سماؤها وردية ، ويطوف بأجوائها هديل يمام ، وغرغرة جداول ، وحفيف أوراق شجر غير مرئية تداعبها أنسام عذبة تسيل رقة ! وكلها كلها من نسيج الصفاء والايمان والهدوء الذي يطوي الروح ويهدهدها !

وأنا من فرط زلزلة هويت على ركبتي على عتبة بيت الله ! وهوى حولي الناس جميعهم ، راكعين وساجدين. وشق التهليل أعماق الصدور ، وبحت الحلوق بالتكبير !

ولكني لم أرفع صوتي عن الهمس . قلت له ، سبحانه :

— « ها أنا ذى يا ربي » !

وخنقتني عبراتي .

وتلك الليلة الأولى لي في الأراضي المقدسة ، أمضيت الليل طوله في الحرم ، أصلي في ركن من أركان الكعبة الشريفة حتى شق الفجر السماء ، فصلينا جماعــة . وكنت اذا تعبت افترشت الأرض على الرخام النظيف ، وجلست أرقب من حولي في ايمانهم .. فــي لهفتهم .. في اشتياقهم يشرئبون نحو خالق الكون !

ثم بدأت شعائر الحج !

عمري في دنياي هذه لم يبهرني شيء قدر ما بهرني موسم الحج هذا ! .

أولئك الناس الذين أشرفوا على تنسيقه ، واعداده ، وتخطيطه ، هم حقا « صنف » يقوى على حمل مسئولية العمل ، ثم على انجاز ذلك العمل بلا ضجة ، ولا دعاية .

« لون » من الناس هم يعمل في صمت ، في ثبات ، في مثابرة !

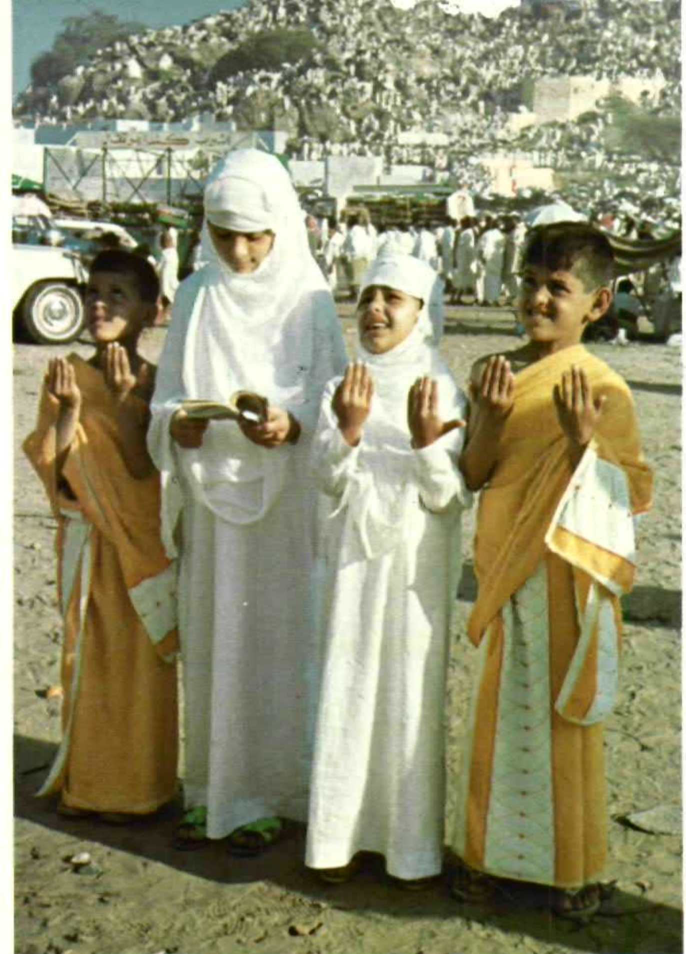
مسكينة والله أسر هؤلاء الرجال « الرجال » ، وكلمة « الرجال » الثانية أستخدمها هنا : صفة !

الأمهات الكريمات ، والزوجات الفضليات ، ثم الأبناء الذين هم فلذات الأكباد ولهم منزلة غالية في قلوب هؤلاء الآباء الذين يعملون حتى خلال العيد بلا كلل ولا ملل . لكن قاوب هؤلاء الآباء العاملين في صمت وفي تضحية ، تعتز بالعمل وبواجب وبالتضحية من أجل حجاج البيت العتيق أكثر من اعتزازها بالأبناء !

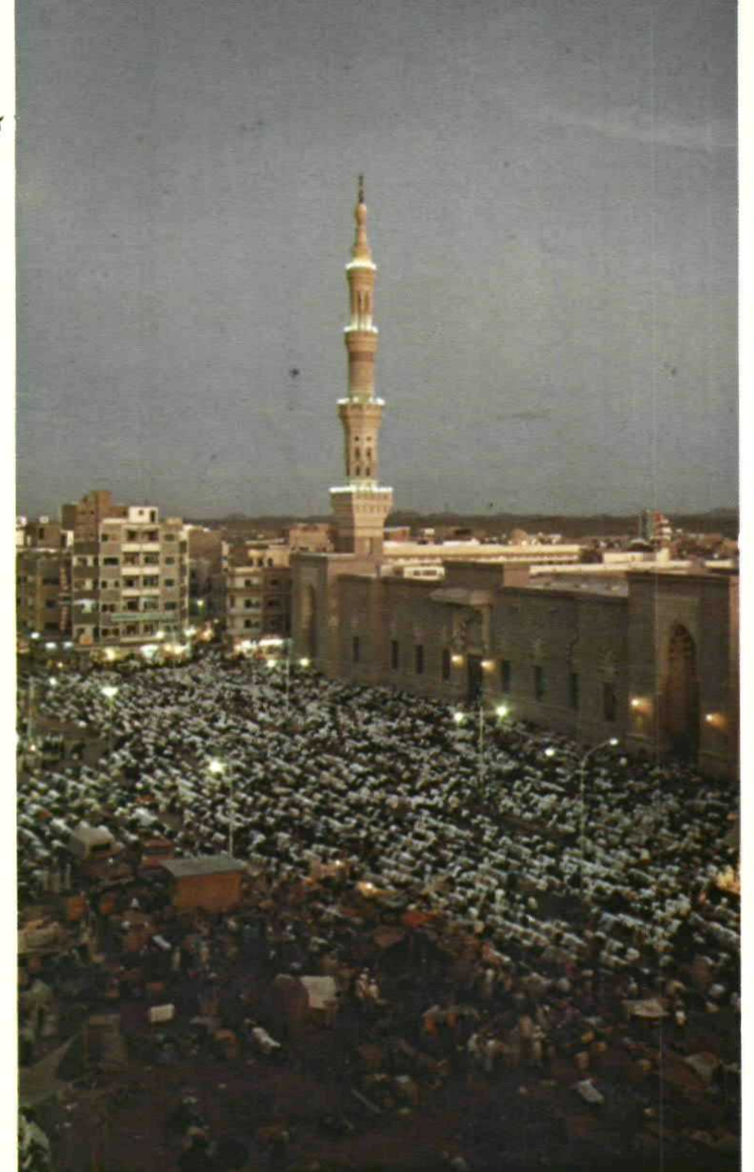
وعلى رأس هؤلاء العاملين ، تجد « الانسان » المسلم بحق وحقيق « الفيصـــل » ! يسهر ويسأل ويحنو حنو الوالد على المكرمين المعززين في هذه البقعة .. حجاج بيت الله الحرام .

والله ما شعرت بسعادة كالسعادة التي أسبغها سبحانه وتعالى علينا جميعا — نحن حجاج بيت الله ! ولكل سعادة سبب . ولكن سعادتنا نحن كانت لها أسباب لا تعد ولا تحصى . منها : الشعور السائد الدائم المتشعب في قلوبنا بأننا كلنا موضع رعاية ، وحدب ، وتكريم ! وأروع ما كان يميز موسم الحج في عامنا ذلك هو عدم التفرقة بين حشود الحجاج ! فالمعاملة الحانية العطوف كانت حقا مشروعا للجميع . لقد رأيت عشرات من رجال الدوائر والمصالح الحكومية يندسون بين الجموع فوق جبل عرفات ، والقيظ على أشده ، وقد أمسكت الدنيا أنفاسها ، وسكن الهواء ، رأيتهم يحملون علبا ضخمة من عصير فاكهة محفوظا ومثلجا ، راحوا يفرغون منه في أكواب مدت بها أيدي الحجاج اليهم ! وهنا تتجلى الانسانية التي هزتني ووجدت طريقها الى قلبي مباشرة ! لم يقص عليّ أحد هذا الحدث ! بنفسي عشت التجربة . فلقد نهضت وانضممت الى الجموع التي تمد أيديها بأكواب ، ومددت يدي أنا أيضا بكوب ! ونلت نصيبي مترعا من رحيق رطب عذب مع كلمة تحية

١



٢



١ – الأطفال بملابس الاحرام يدعون الله ويبتغون رضوانه .

٢ – منظر للمسجد النبوي في المدينة المنورة ، وقد ازدحمت جوانبه بالمصلين الذين لم يجدوا مكانا لهم في الداخل ..

٣ – الحجاج يرمون الجمرة الصغرى في منى .

٣

طيبة ، فأدرت نظري نحو السماء : ربنا نحمدك حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فتقبل منا انك أنت السميع العليم .

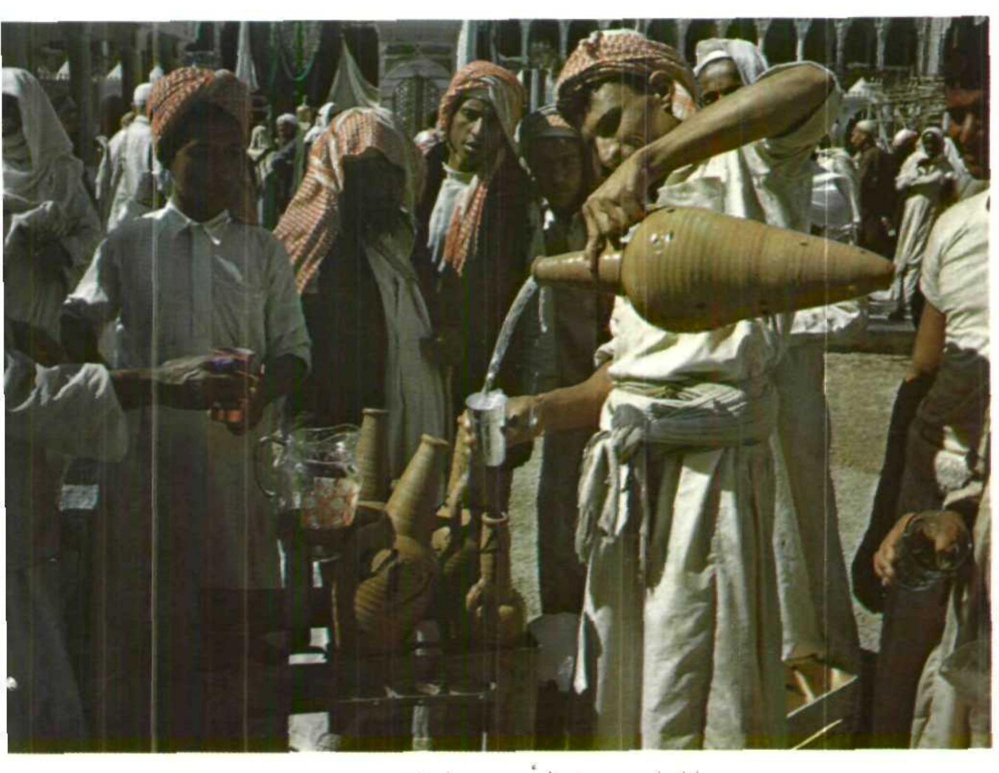
ولقد تميز موسم الحج أيضا بالماء النقي الوفير ، ينساب متدفقا ، في متناول الجميع ، من صنابير تحتها أحواض أقامتها الحكومة على طول الطريق من مكة الى عرفات كان في متناول الحجاج ، كل الوقت ! في شتى الطرق التي سلكها الحجاج .

شيء آخر دهشت أنا نفسي منه فلقد كان الحجاج المسافرون ، ليلا أو نهارا ، يجدون حاجتهم من الأطعمة الخفيفة كالفاكهة المحفوظة وعلب الجبن المحفوظ ولفائف الحلوى المختلفة وعلب « البسكوت » تباع في محطات البنزين المنتشرة على جوانب الطرق ! وتلك فكرة عملية انبثقت من صميم الحاجة اليها ! !

ثم الطرق عينها التي يقطع منها الحجاج مئات الأميال في قيامهم بشعائر الحج . فبرغم الأمطار الغزيرة التي انهمرت قبل موسم الحج بفترة وجيزة وانحدرت من قمم الجبال والتلال في سيول جارفة أفسدت الطرق ، واقتلعت طبقة « الاسفلت » التي تغطيها وأغرقتها . وأحدثت بها فجوات ونتوءات — برغم ذلك العائق الذي لا يستهان به ، سرنا نحن الحجاج في رواحنا ومجيئنا على طرق خيل الينا انها لم تمتد اليها يد الخراب أبدا .

أما الحر والقيظ والاجهاد فقد أوجدت السعودية له حلا حكيما .. فشيدت على جوانب الطرق ظللا شاسعة مسقوفة ، لا جدران عالية لها ولا أبواب . أعمدة فارغة فحسب تحمل السقف الظليل الفسيح ، ثم رصت تحته أرائك خشبية عديدة ونظيفة ، ينام عليها الحجاج أو يجلسون ليستريحوا ، أو ليحطوا عندها الرحال بعض الوقت ، طال أو قصر . هم ، أي الحجاج ، دائما على الرحب والسعة في كل مكان ، في كل وقت وزمان ! كانت تلك الظلل الجماعية العامة تتلألأ بأنوارها في الليل البهيم على البعد كأنها ابتسامة كبيرة وضاءة تشرق في وجه الظلمة ، وتشيع الأنس والألفة ، وتبعث الأمل والتفاؤل في قلوب الحجاج المجهدين المتكتلين في السيارات ، وقد قطعوا بها أميالا وأميالا في سفر طويل متصل وشاق !

والصورة التي قد التصقت بذهني عن شعب السعودية ، خلال موسم الحج ، وتهب عملاقة أمامي كلما هفا خاطري الى البلاد المقدسة هي



الحجاج يروون ظمأهم من ماء زمزم .

صورة احدى النعم التي نعمنا بها هناك ! الأمن والسلام التي تشيع في قلب ذلك الشعب الكريم ، حتى بات الأمن في هذه البلاد موضع دهشة واعجاب . فالمحال التجارية في الأحياء الشعبية الأصيلة ، في المدن المقدسة خاصة ، في مكة ومنى والمدينة المنورة ، هي محال بلا أبواب على الاطلاق برغم طاقات النسيج الفاخر المكدسة فيها والحرير الثمين الهفهاف فعندما يرفع الأذان جليلا مجلجلا يدعو الناس للصلاة ، يهرع صاحب المحل مع معاونه أو ولده أو مع كليهما الى الحرم ليكونوا أول المصلين ! أما بضاعته فيتركها كما هي على رفوفها بهجة للناظرين ، وفي متناول يدهم أمانة في رعاية الله ، سبحانه وتعالى ! لذلك كنا نحن أيضا ننام ملء جفوننا في حجراتنا ، أو في خيامنا بلا نوافذ مغلقة ، بلا أبواب موصدة ! فاذا خرجنا لصلاة أو لجولة ، تركنا متاعنا ومالنا على حاله وغبنا عنه كما نريد ! مع نجمة الصباح الأولى ، يبخر التاجر محله ، ويرطبه ، ويعطره برحيق الورد والزهر . ثم يجلس نظيفا ناصعا في جلبابه الأبيض ، وغطاء رأسه الأبيض ، وقلبه الأوفر بياضا من الاثنين ! انني لا أقول قولي هذا اعتباطا ، بل حقيقة لمستها أنا بنفسي في هذا البلد الأمين .. فريدة في لون تجارها .. حيث ينصح التاجر العميل بقوله :

— « تكفيك يا أخي ثلاثة أمتار من هذا النسيج — تكفي وتزيد ! »

فاذا تخوف العميل وطلب مترا آخر ، قال له التاجر باخلاص ومودة :

— « لماذا تبعثر نقودك فيما لن ينفعك ؟ لقد نصحتك أن تأخذ ثلاثة أمتار فقط من هذا النسيج ، لأن هذا النسيج عريض وسوف يكفي كريمتك العروس لتصنع لنفسها منه ثوبا فضفاضا بكمين يصلان الى الرسغ ، وتجرره هي خلفها من فرط طول ! »

أما الأثمان والأسعار فقد استتبت فيها ، لا ارتفاع ملتاث مفاجيء ، ولا ذبذبة محمومة ، ولا توتر أعصاب ، ولا تحفز ، ولا تنمر !

بقي أمر بهرني ، والجم لساني ، وملأ قلبي بشكر وامتنان حتى فاضت عيناي . فسألتني ابنتي ، الحاجة الصبية ، بوجهها البريء وروحها الصافية تطل من نظرتها :

— « لماذا تبكين ، يا أمي ؟ »

فقلت لها ما أقوله لكم هنا :



في أواخر أيام التشريق بمنى يقبل الحجاج على شراء المسابح وغيرها من الهدايا ليحملوها الى أقربائهم وأصدقائهم فرحين مستبشرين بعد عودتهم من حج مبرور وسعي مشكور .

— « لأنها أول مرة هذه ، يا ابنتي ، أعجز فيها عن التعبير عن مشاعري بالكلمة وأنا مهنتي ورأس مالي : « الكلمة المعبرة » ! فكان لا بد أن أعبر بالدموع عن دهشتي وفرحتي !

ففي « منى » .. بين شقي الجبل ، والحجاج جميعهم قد احتشدوا في تلك البقعة الصغيرة عينها .. تلك الأيام الثلاثة يمارسون شعائر الحج ليكتمل لهم ركن هام من أركان الدين وأعمدته .

انتهى موسم الحج بلا ذباب ! على الرغم من مئات الألوف من الحجاج من مختلف الفئات والبيئات والمستويات .

لقد كنت أندس بين آلاف الحجاج ، أسير سيرهم ، وأشتري مما يشترون ، وآكل مما يأكلون : حلوى ، أو شريحة دجاج ، أو المعروض في الأسواق من أرغفة حارة ذهبية ، ثم اشتري هدايا من أساور زهيدة الثمن مزخرفة ، وطواقي مطرزة ، وعشرات السبح الملونة !

لم أكن في عزلة على الاطلاق عن حشود الحجاج ومع ذلك .. لم أر ذبابة واحدة !

« الرقابة » اليقظى أبدا والحازمة أبدا على « نظافة » الشوارع هي التي اعتبرها صاحبة الفضل الرئيسي في « المعجزة » ! رقابة بعين مفتوحة أبدا لا تنام !

وبعد تنظيف الشوارع والطرقات ، يحل دور غسلها ، وقد قامت بالمهمة خير قيام سيارات ضخمة ، كيانها عينه خزان ماء ، على كل من جانبيه رذاذ يندفع منه الماء كالنافورة ليغطي رقعة كبيرة من الأرض ، ولكل من تلك السيارات فرشاة ضخمة مثبتة بين عجلتيها الخلفيتين ، ولم تكن تلك السيارات تعمل الا قبيل الفجر بساعة أو بساعتين ، عندما يتقهقر النشاط ، وتخفت الأصوات ، ويغيض الضجيج ، ويزحف التعب الى الأوصال ، ويقبل النعاس ، وتشتد اللهفة على الراحة ! فتغلق المحال التجارية ، والمطاعم ، وأفران الخبز ، والمقاهي ، ويخلو الشارع ، ويسوده سكون ، وتحط عليه سكينة ، وقد هجع الناس جميعهم ينشدون النوم لحظات !

ثم عمال الصحة رأيتهم أعدادا كبيرة ، وقد انتشروا بين الجموع المتكتلة في شوارع « منى » الضيقة خاصة ! فيحمل كل منهم جهاز تبخير على كتفه ويندس بين الناس المتزاحمة ، وقد أمسك بخرطوم الجهاز بعد أن أمال فوهته نحو الأرض . وذلك كي لا يزعج الحجاج ويطلق بخاره المطهر في وجوههم ! ثم يضغط على زر ، فسرعان ما تهب سحابة كثيفة لطيفة الرائحة تلف الناس ، وثياب الناس وتلف البيوت والمحال والمطاعم .

انها بلاد تقدمية .. تستخدم الطائرة « الهيلوكوبتر » في تنظيم المرور عن طريق اللاسلكي ، وفي تبخير مساحات شاسعة من الصحاري .. والطرق .. والمدائن !

بتواضع جم ، وبشعور بالواجب متوهج .. تحت شمس حارقة .. ساعات وساعات ، يقف المسؤولون .. الكل يعمل ، ويكد ويكدح يتقربون الى الله بارهاق أنفسهم في خدمة حجاجه ، سبحانه !

« يا رب ! أنا التائهة وسط زحام الدنيا ، فلا تجعل رأسي يدور بمباهجها ، ومفاتنها ! اللهم لا تدع قلبي يثمل بنجاح فيها ويدأب ملهوفا على مزيد انما نجاحي هو قربي منك يا الهي !

يا رب : طامعة أنا في كرمك ، فعلمني اللهم أن أفتح قلبي وبابي لكل ملهوف من عبيدك يا مالك الملك ،

يا رب : أنا الفقيرة اليك ، يا غني عن العالمين ! يا رب : أنا الخائفة في قوقعة وحدتي الا من صحبتك السجينة في غيابات ذنبي الا من مؤانستك ! فاطرق اللهم بنورك قلبي النابض بحبك ؟ »

يا رب : أوزع قلبي أن يتلهف على عالم الروح والشفافية ، وأن يشرئب الى الري بكلامك المنزل يا الهي !

ربي : طامعة أنا في عفوك ، فعلمني العفو عن عبيدك قبل أن أطلبه لنفسي منك ، يا عفو يا رحيم !

يا رب : خذ بيد روحي الحيرى وخلصها من صغائر الدنيا ، وامسح الغرور عن نفسي

يا رب : واقفة أنا على أبواب مملكتك الواسعة أغسل أعتابها بدموعي ، وأنقر على بابك بدقات قلبي المشتاق لنورك يا الهي !

يا رب : انثر الحب ، والأمن والسلام على كل ركن من أركان الدنيا ، كما يتناثر الندى الخصيب من السحب بأمرك يحمل الخير ، والأمل ، والازدهار ! .

اللهم : ذكر عبيدك المكبين المتهالكين المتكالبين على مادة فانية ، أن يرفعوا وجوههم الى سمائك الصافية في لحظات غضبهم ! اللهم فامسح حينئذ بأنملة نورانية عن جباههم تقطيبة البغض ، وارسم على الوجوه بسمة السماحة والرضا وازرع في الأفئدة محبة وسلاما ■

ذكريات عن الحج

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس

بعد ظهر أحد أيام شبابي كنت أتصفح مجلة مصوّرة قديمة كانت طافحة بالحكايات والأخبار اليومية مع كثير من صور البلدان البعيدة . وخلال تقليبي لصفحاتها بلا اهتمام وقعت عيني على صورة لمنازل ذات سطوح مستوية ارتفعت بينها قباب مستديرة تحت سماء أضيئت بضوء هلال . وفوق أحد السطوح امتدت خيالات على شكل خطوط عجيبة لأناس وقفوا في صفوف منتظمة وهم يرتدون الملابس الفخمة الجميلة . ولقد أثّرت عليّ هذه الصورة كثيرا . كان المنظر شرقي الطابع ، شبيها الى حد كبير بالأمكنة التي يتحدث عنها أحد الرواة في حكاياته الغربية عن الشرق العربي . كان المنظر قريبا الى قلبي لدرجة أنني غدوت كشاب مجري في السادسة عشرة من عمري وكأني أجلس مع باقي المستمعين العرب فوق الديوان الناعم الوثير نستمع الى المغني بصوته الحنون المحزن .. فولد في نفسي حبّاً لا يحتمل لمعرفة طبيعة شعاع هذا النور الذي يجادل الظلام في الصورة .

وابتدأت أتعلم اللغة التركية ، ولم يمض طويل وقت حتى عرفت أن اللغة الأدبية لا تحوي الا عددا قليلا من الكلمات التركية الأصلية . لقد كان الشعر في اللغة غنيا بالتعابير الفارسية بينما كان النثر طافحاً بالعربية. فمن أجل الدخول الى عالم معنوي يبعث النور على الانسانية ابتدأت أتعلم هذه اللغات الثلاث جيدا وأكتب كلماتها وأتكلمها .

ومرت أعوامي بتغير الحوادث والرحلات والأعمال . فكل هذه فتحت أمام عيني آفاقا فسيحة ومجالات جديدة حديثة . سحت في كل بلدان أوروبا ودرست في جامعة استانبول ، واطلعت بكل تقدير على روعة تاريخ سوريا والأناضول ، وتعلمت اللغة التركية والفارسية والعربية ، ثم شغلت منصب تدقيق المؤلفات الاسلامية في جامعة « بودابست » ، فقرأت برغبة جامحة ما خلفته الدهور من معرفة محسوسة رفيعة مع آلاف الصفحات من الكتب العلمية التي وجدت فيها طرف الحبل الذي أبحث عنه ، ولكني لا زلت أبحث عن الخضرة التي لا تنمحي والمنبعثة عن أسلوب الحياة الدينية التي تجول في نفسي .

وامتلأ عقلي بالمعرفة وطفح . ولكن روحي بقيت بلا ماء ، يجب عليّ أن أنقي ما عندي من علوم . وعن طريق العيش في عالم الحب



صورة للمسجد الحرام في مكة المكرمة يرجع عهدها الى عام ١٩٣٤ .

الالهي المنبعث عن أصالة النار المضطرمة في نفسي يجب علي أن أنال ذلك .

وفي مرحلة أخرى من مراحل حياتي ذهبت الى القاهرة . وفي الأزهر الشريف قرّ عزمي أن أقوم بدراستي وحدي مستعينا بمعلم خاص تكرم بتضحية جزء من وقته لتعليمي ، كما لقيت مساعدة عظيمة من بعض أصدقائي بالقاهرة ، كالأستاذ محمود تيمور الذي يجمع بين ظرف الشباب وطهارة الشيوخ ، والشاب النابه محمد أمين حسونة الذي عرفني الى طائفة من أدباء مصر وصحفييها ، وأعارني مكتبته طيلة اقامتي في مصر ، والباحث محمد عبد الله عنان الذي يعد حجة في التاريخ الاسلامي ، والشيخ الوقور عبد الوهاب النجار الذي له أتباع وتلاميذ منتشرون في أنحاء الأرض ، والذي كان سببا في تعرفي بكثير من اخواني المسلمين . وكانت كتب توصيته بمثابة مفتاح يفتح أمامي كل باب .

وفي أواخر فبراير سنة ١٩٣٤ ، زودني الأستاذ النجار بكتب توصية بمناسبة عزمي على أداء فريضة الحج ، واستعددت استعدادا كاملا للفريضة الكبرى .

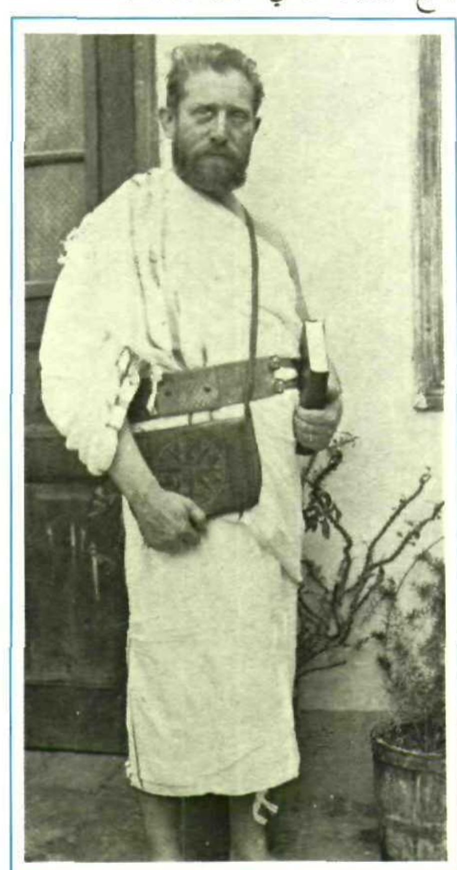
ازدحم الناس على رصيف محطة القاهرة ما بين الصفوف الطويلة من قطارات السكك الحديدية ، فيهم السياح الغربيون ، وفيهم المصريون « المطربشون » وفيهم الشيوخ المعممون ، والى جانبهم فلاحون بلباسهم المتواضع ، فتألفت من مجموعهم صورة متلونة متحركة رائعة المنظر . والخط بين الاسكندرية والقاهرة ممدود منذ تسعين سنة .

لم أكد أصل الى المحطة حتى عرفت بين الجموع المزدحمة أصدقاء لي حضروا لتوديعي .. وهم نخبة من العلماء والأدباء اشرأبت أعناقهم ومدوا أيديهم ليصافحوا صديقهم الشيخ عبد الكريم قبل ارتحاله . هنا شيخ ذو بشرة سمراء ، ضعيف البنية ، ما زال آخذا بيدي ، ذلك هو الشيخ الأهدل اليمني ، وقد أظهرت لي عيناه اللامعتان احساسه نحوي ومكنون اخلاصه لي ، فهو يأبى الا أن يقدم لي خاتما من اصبعه يكون تميمة تدفع عني عصى الأمراض وما فتىء يقول : « اذا ذهبت الى مكة فاقصد بيت اليمن وأنا معروف لديهم ، وعرفهم بصداقتك لي وهم يقبلونك ويقضون حوائجك ، المساكن هناك متواضعة ولكن تجد عوضا عن الترف قلوبا وفية مخلصة » . ثم أخذ الشيخ الأهدل ورقة فخط عليها اسمي واسمه وطلب الي أن أقدم الورقة الى شيخ بيت اليمن فهي توصية بي . وقد وعدته أن أستجيب لدعوته .

وعلى مقربة من الشيخ الأهدل ، صديقي أمين حسونه ، عيناه تنظران الي في اشفاق وحزن كأنه يخشى أن يصاب بمكروه صديقه الغربي الذي شاركه في كثير من أحلامه الأدبية والاجتماعية . وهنالك أيضا صديقنا محمود تيمور ، والى جانبه الشيخ شوقي أمين الذي لم يخن معنى اسمه أبدا ، وذلك أنه المشتاق الأمين لي من يوم تعرفنا الى الآن ، ومعهما وجه الشيخ عبدالوهاب النجار المبتسم دائما والذي يكن نحوي أنبل العواطف .

كثيرون من أصدقائي اجتمعوا على الرصيف حتى بواب البيت الذي أقمت فيه لم يفته أن يخف لتوديعي ، ويطلب مني أن أقرأ الفاتحة باسمه وباسم البوابين رفقائه ، أولئك الذين أحبوني وأحبوا من أجلي العربية الفصحى ، وأولئك الذين يقولون لي دائما أنت تنطق بلسان نبينا الفصيح ويستوصونني خيرا بأخوتهم المسلمين الفقراء في البلاد البعيدة التي جئت منها .

صاح القطار صيحته المفزعة وتابع صفيره وتحرك حركته البطيئة . قال المودعون : « مع السلامة ، في أمان الله » .



الحاج عبد الكريم جرمانوس في ملابس الاحرام ، في عام ١٩٣٤ .

وارتفع الصوت في الهواء وظل يرافقني في طريقي مزيلا عن نفسي هواجس المخاوف ، وشعرت حينئذ بخفقان قلبي وجيشان أفكاري التي كانت متجهة الى جزيرة العرب منذ أشهر ، ثم مالت الآن الى مصر اللامعة ، وبدا أمام عيني الأزهر والمساجد المنيرة والمناقشات العلمية ، ذابت كلها الآن في خيالي حتى أصبحت كأسطورة لا تتصل بالحقائق الملموسة أو كأنما هي حلم من أحلام صباي تلقيته من حاضنتي في أول لحن غنتني اياه . أفارق الآن مصر . هذا القطر العربي فأفارق به أول وقفة لي على طريقي نحو تحقيق آمالي الحرة .

شعرت حينما نظرت الى نفسي أنني أحلم الآن مرة أخرى ، لأن على بدني لباسا شرقيا وعلى رأسي طربوشا ، وأتخطى طريقا يمكن أن يعاديني فيه البحر والسماء والهواء ومضايقات بعض الناس ، لا أحمل معي الا قلبي المجري المخلص ، واذا انقبض هذا القلب برعب لم يبق لي الا أن ألقي نظرة الى العلم المجري الصغير تحت قميصي وهو يذود عني الخوف والرعب . وقد أسر الي هذا العلم أن المسلم المجري الأول الذي يدخل الصحاري لا خوف عليه والله يحفظه .

وقامت بنا الباخرة « باسم الله مجراها » تشق برزخ السويس ، فرحت أفكر في تاريخ ذلك المضيق الذي كان سببا في فصل أفريقيا عن آسيا ، بل كان فاصلا بين حقبتين من أحقاب التاريخ ، وبينما أنا غارق في غمار تلك الأفكار اذ اقترب مني فريق من الحجاج وبدأ التعارف بيننا بسرعة . كان بينهم طبيب هندي تصحبه كريمته ، ولكن لسوء الحظ لم يكن هذا الطبيب يعرف من اللغة العربية حرفا واحدا ، فاضطررنا أثناء السفر الى التحدث باللغة الانجليزية . وفي ذات يوم نظر الى نسخة من القرآن الكريم في يدي ، وهي الطبعة التي تولتها المطبعة الأميرية ، فأعجب بها أيما اعجاب ، وطلب الي أن ابتاع لحسابه ألف نسخة من هذه الطبعة ليبعث بها الى الهند اذ لا توجد هناك مصاحف جميلة من هذا النوع .

وكان بالباخرة أيضا حاج مراكشي ، يشغل وظيفة قاض في فاس ، وكان صبوح الوجه وقورا ، أميل الى التزام الصمت ، لكنه ما كاد يسمعني أتحدث بالعربية مع أحد الحجاج الأتراك حتى أقبل الينا واشترك في الحديث . ولشد ما أعجبت بتبحر الرجل في العلوم الاسلامية والفقه ، كما أن لباسه الشرقي الفضفاض كان يخلع عليه



هكذا كان ميناء جدة البحري في عام ١٩٣٤ حيث كانت القوارب تنقل الحجيج من البواخر الراسية في عرض البحر .



أحد مداخل مدينة جدة التي كانت ممرا للحجاج وهم في طريقهم الى مكة المكرمة لتأدية مشاعر الحج ومناسكه ، ويرجع تاريخ هذه الصورة الى عام ١٩٣٤ .

المناخة بالمدينة المنورة في عام ١٩٣٤ ، وهو المكان الذي كانت قوافل الجمال تحط فيه رحالها .



طابعا من الرزانة والوقار ، أما صاحبنا التركي فكان أحد ضباط الشرطة في دمشق ، وبعد اعتزاله الخدمة آثر أن يبقى في سوريا حيث تعلم اللغة العربية ، وكان طيلة سفره يشكو مرّ الشكوى من الأنظمة الحديثة في تركيا ، وبالأخص ترجمة القرآن وتشويه هذه الترجمة بحيث لا تؤدي المعاني المقصودة ، ويظهر سخطه وتبرمه بالغازي الذي يحول دائما بين المسلمين الأتراك وبين أداء فريضة الحج ، ويرهق كل من أراد الحج بالضرائب الفادحة .

حين ذلك ترى أننا كنا على ظهر الباخرة من بلاد متباينة ، ولكن تجمعنا جامعة الاسلام وتؤلف بين قلوبنا وتجعلنا نعيش كأفراد أسرة واحدة . فلما اقترب موعد العشاء أخذنا أماكننا على المائدة ، وكان يخيل الى كل من يرانا أننا في برج بابل ، فكل منا يتكلم بلغة لا يفهمها الآخر ، بيد أننا سوف نصل بعد بضعة أيام الى جدة وتطأ أقدامنا الأرض المقدسة فنخلع عن أنفسنا تلك الملابس التي تفرق بيننا لنستبدل بها لباس الاحرام الفضفاض بحيث نكون سواسية في حضرة رب البيت الكريم .

وبعد انتهاء طعام العشاء بقليل صفرت الباخرة صفيرا عاليا فغادرنا المائدة وتهيأنا للوضوء ، ثم صلى كل منا ركعتين قرأ فيهما سورتي « **الاخلاص** » و « **الكافرون** .. » .

وكان البحر هادئا والهواء نديا والنجوم تتألق في القبة الزرقاء ، وراحت الباخرة التي كانت تحمل على ظهرها أكثر من ٧٠٠ حاج تلقي مراسيها بين هتاف الحجاج ودعواتهم الحارة . وهكذا ظل الحجاج في هرج ومرج ، فكنت ترى البعض يهتف بقوله : « **لبيك اللهم لبيك** » ، والبعض الآخر مستغرقا في صلاته ، وآخرين صامتين لا يبدون حراكا ، شاخصين بأبصارهم في ذهول نحو الأرض المقدسة التي خرج منها سيد الخلق ورسول رب العالمين .

وما كنت بأقل من هؤلاء الحجاج شعورا بالغبطة والابتهاج ، ولزمت مكاني خاشعا راكعا لا تقوى قدماي على الحركة ، ودقات قلبي تثب في قوة وعنف بينما يردد لساني في خفوت : « لبيك ألّلهم لبيك » . ثم انهمرت الدموع من مآقي ولم أملك أن أمنع نفسي من الاسترسال في البكاء . أجل .. أدركت الحق الصحيح ولمست عظمة هذا الدين الحنيف ، وعبثا حاولت النوم في تلك الليلة ، بل شرد عقلي ، واتجهت

بتفكيري الى أعمال الخلفاء ، رضوان الله عليهم ، والى رعايتهم الأمم الاسلامية ، وتوزيع أسباب العدالة عليها طبقا لأصول الشريعة السمحاء . لم يكن معي مما يذكرني بالشئون الدنيوية سوى شيئين : جنيهات من الذهب معدودة ، وساعة تعد الوقت ، ولكن رأسي كان مفعما بأشتات من الشئون الأخروية مما لا يحصى وما لا يعد . جلست على ظهر السفينة خاليا ووجهت أنظاري متطلعا الى الشرق وحولي الحجاج في ثياب الأحرام المتشابهة يركعون ويسجدون ، صرنا كلنا متساوين لا سيد ولا مسود ، لا غني ولا فقير ، الخضوع للايمان وحد بيننا ، صرنا أخوة في الظاهر ووجب علينا أن نصير أخوة في الباطن أيضا . علينا أن نتحاب لأن كل الحجاج أسرة واحدة تستمنح رحمة الله .

كنت لا أزال منزويا في مقدم الباخرة ، حينما أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن هذه البقاع الاسلامية المقدسة ، فاذا «بجدة» تسمو في السماء اللازوردية ، بينما تترامى أمواج البحر على أقدامها ، تشقه عشرات البواخـــر والزوارق في حركة متواصلة ، يتصاعد منهـــا صخب داو اختلطت فيه مختلف لغات الشرق ، فأعادت الى ذهني المكدود بابل بأسواقهـــا وشعوبها ، الا أن المدينة الخالدة كانت تبدو فوق هذه الحياة اللاغطة كأنما تسمو خلودا فوق مظاهر مدنيتنا الحديثة الزائلة ، وقد برزت منها مآذن في دقة الحراب وقباب كانت شاحبة البياض قبل أن يشوبها دخان بواخر الغرب فكانت ترسو في ظلها المراكب الشراعية حاملة طوائف المسلمين من الهند وجاوه وسومطره والصين وشواطىء أفريقيا .

واقترب الصباح فاستعد الركاب للنزول ، وبدأوا يستقلون الزوارق الخفيفة ، وكانت النساء يرتدين تلك الملابس البيضاء ، سافرات الوجوه ، لا يجرؤ أحد على أن يتطلع اليهن بنظرة ، وقد أبعد الحجاج عن خواطرهم شتى صور الحياة حتى لا يحول شيء بينهم وبين الوصول بقلوبهم الى نور الله الواحد القهار .

وكان على الشاطىء حشد من الحمالـين والمطوفين ومراقبي جوازات السفر وفريق من موظفي الحكومة لجباية الضرائب ، وهم جميعا يتكلمون لغات شتى . فما أن يهبط عليهم أحد الحجاج حتى يلتقطه المطوف ويقوده الى الموظفين المختصين، وبعد اتمام الاجراءات الرسمية يصحبه الى المسكن المعد لاقامته .

وجاء دوري ، فلما مثلت أمام مراقب الجوازات تطلع الي وسألني عن جنسيتي ، فأجبته من بلاد المجر . عند ذلك أظهر ارتباكا ، اذ لم يسبق له أن سمع قبل اليوم ببلادنا . وأخيرا أسر الي بأن مسألتي من المسائل التي يبت فيها الأمير بنفسه . وأشار الى أحد رجال الشرطة وأمره بأن يقودني الى دار الأمير لأنه هو الذي بيده سلطة التصريح لي بالسفر الى مكة . وكانت دار الأمير تبعد عن الميناء مسافة لا تقل عن نصف ساعة سيرا على الأقدام . ولبّيت الأمر فسرت مع ذلك الشرطي نتجاذب أطراف الحديث في طرق معبدة ملساء ، غير أنه كان من سوء حظي أن أحد مسامير الخف الذي كنت أنتعله ، برز من موضعه ودخل في قدمي فأحدث لي ألما شديدا ظل أثره أياما طوالا .

وما أن انتهت مقابلتي للأمير ، وقـد استغرقت نحو ساعة ، حتى عدت الى الباخرة ، وكنت قد نسيت أني تركت أمتعتي في الزورق البخاري ، ولقد كان أسفي لضياعها عظيما ، وكم عنفت نفسي لوقوعي في مثل هذا الاهمال الذي كانت نتيجته ضياع الأمتعة بما فيها الكتب ، وكدت أقطع الأمل في العثور عليها ، ولكن الله سلم ، فان النظام المحكم الذي يقوم به رجال الشرطة في الحكومة السعودية أتاح لي أن أعثر عليها بسهولة في احدى قاعات الجمرك وعليها بطاقة باسمي . وبعد ساعة قادني المطوف الى دار الأستاذ « محمد نصيف » الذي كنت أحمل اليه كتاب توصية ، وما كاد يتلوه حتى راح يرحب بي على طريقة العرب في شوق وترحاب ، وغمرني بكل صنوف الكرم التي لن أنساها ، وتلك لعمري احدى مفاخر الاسلام التي تتجلى عظمتها في كل مناحي الحياة .

والأستاذ « محمد نصيف » فوق أنه من سراة الحجاز ، رجل مثقف ثقافة عربية ناضجة ، وتضم داره مكتبة زاخرة لا يكاد الانسان يرى مثيلها في بعض الأقطار الأوربية أو الآسيوية ، وله رفاق يلتفون حوله كأسراب الطيور ، ليلتقطوا من حديثه الشهي الحكم والعظات .

تبعد جدة عن مكة نحو ٧٩ كيلومترا ، وتشبه مبانيها الاستحكامات العسكرية ، ودورها مرتفعة ارتفاعا شاهقا ، وهي مكونة من جملة أدوار ، بينما تتوج جدة قباب المساجد المقدسة واسمة اياها بذلك الطابع الفريد الذي يميزها دون سائر مدن العالم .

وتستقبل أسواق جدة زبائن من بقاع العالم كافة ، ولا يفتأ تجارها يستحضرون أنواعا من السلع لا تناسب بينها مطلقا ، بل هي خليط من أذواق مختلفة ومشارب متباينة .

وبعد أن قضيت في ضيافة الأستاذ محمد نصيف بضعة أيام ، صدرت الأوامر بالسماح لنا بالسفر الى مكة . والواقع أن الفترة التي قضيتها في دار ذلك الشيخ الجليل دفعتني الى الايمان الشديد بأن الفوارق الجنسية لا أثر لها مطلقا في الاسلام ، بعكس ما نشاهده في الحضارة الأوربية من الاشادة بالقوميات والعصبيات وغيرها من المشكلات الاجتماعية التي تثيرها روح التعصب الأعمى . وصادف أن رافقني في السيارة الى مكة خمسة عشر زنجيا من أهالي الصومال ، وكنا في خلال الطريق لا ننقطع عن التلبيـة « لبيك اللهم لبيك » . وهنا يجدر بي أن أنوه للمرة الثانية بعظمة الاسلام التي تتجلى في عدم التفرقة بين الكبير والصغير والرئيس والمرؤوس ، فالكل سواسية . وقد شعرت بتلك الحقيقة وأنا بصحبة هؤلاء الزنوج الفقراء ، وقارنت بين ذلك وبين الفروق الشاسعة في أوروبا الموجهة نحو التمييز العنصري والتفرقـة بين الألوان .

كانت السيارة تنطلق بنا في طريق ممهد لا يمله النظر في كل جزء من أجزائه ، طريق سلكه قبلنا ملوك وعظماء وأنبياء منذ مئات السنين .

ودخلت سيارتنا مكة في منتصف الليل تقريبا ، فراعني أن أرى الناس في الشوارع ، يغطون في نومهم ويحلمون بالجنة التي هم بها موعودون ، لا سيما وأنهم أصبحوا على قاب قوسين منها . أهاج هذا المنظر خاطري فانبثق في نفسي شعور خفي وأنا أستقبل تلك الأرض المقدسة التي وطئتها قدما الرسول ، وكانت خير منارة للحق ، فهدت الناس الى السبيل القويم .

ثم تابعنا سيرنا ، ووضحت لي معالم مكة ، فأخذ حنيني يتوثب ، واستطلاعي يشتد ، وأخيرا دخلنا مكة . أجل ، دخلنا أول بيت وضع للناس . تلك هي مكة التي يتجه اليها ثلاثمائة مليون من المسلمين خمس مرات كل يوم ، وقد كنت مقرورا أحس ببرد شديد ، ولكن فرط التذكر وحضور المعاني الدينية في نفسي ، كل ذلك أكسبني حرارة زالت بها البرودة عني ، وتحولت الى حالة جديدة اذ نبع من أعماقي نبع من عرفان الجميل لله الذي هداني الى هذا البلد وما كنت مهتديا لـه لولا لطفه بي وارادتـه الخير لي . ولم تكد السيارة تدخل مكة حتى

— وكان له حلم ؟
— حلم كل ذي طموح .
— مثلا ؟
— أن يكون أحد رجالات دار الخلافة .
— كذا .. وسبب فقده البصر ؟
— مرض أصابه .. وقيل الكثير في أسباب مرضه ، وعندي أن كثرة الدرس ، وفي أوقات الليل خاصة ، هي وحدها السبب .
— قد تكونين مصيبة .. وهل من أمل في عود بصره اليه ؟
— بالله سبحانه وتعالى الأمل .
— أرى أنك مؤمنة .
— وأشد من ايماني ايمان ولدي الذي لا يشك في أنه سيستعيد البصر ، ويتابع السير في السبيل الذي اختطه لنفسه .
— سبيل الوصول الى دار الخلافة .
— قد لا يكون على حق في طموحه الى تحقيق حلم كهذا ، ولكن ...
— ولكن ماذا ؟
— أليست للشباب أحلام يتعذر تحقيقها ، وتظل مع ذلك تدعى « أحلام الشباب » ؟
قال الخليفة ضاحكا :
— صحيح هذا .. وعندي أن أجدر أصحاب هذه الأحلام بتحقيق أحلامهم طلاب العلم لأن لأمثالهم مناصب الدولة .
وعطف قائلا :
— وهلا حلم آخر لولدك ؟
— حلم آخر ...
قالتها متنهدة ، وتابعت :
— حلم كل مسلم مؤمن .. كل راغب في حسنات الحج ، تلك التي من زود نفسه بها أمن العثار في دنياه ، وكان له في نفسه سبيله القويم من هذه الدنيا الى الآخرة .
— وما حسنات الحج ؟
— قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « من حج من مكة كان له بكل خطوة يخطوها بعيره سبعون حسنة ، فان حج ماشيا كان له بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة ... وكل حسنة من حسنات الحرم بمائة حسنة » .
قال الخليفة دهشا :
— من علمك هذا ؟
قالت مزهوة :
— ولدي ، يا أمير المؤمنين .
قال : من هنا أرى طلائع فضل ولدك ونبوغه .. هل من حائل يحول دون تحقيق حلمه بالحج ؟
قالت : كلا ، ولكن ...
— ولكن ماذا ؟
— ليس المال ما نفتقر من خير الله اليه ، وافتقارنا انما هو الى الرفقة وحدها ، فولدي كما يعلم أمير المؤمنين ضرير ، وأنا امرأة .
— وترافقينه أنت ؟
— وهل من الحكمة والمعقول أن أدعه يسافر وحده ؟
— قال : ستكون لك الرفقة المطلوبة .
قالت ، وكأنها غير مصدقة :
— كيف ؟
قال : لقد اعتزمنا الحج هذه السنة ، وستكونين وولدك في عداد الذين ستتألف حاشيتنا منهم رجالا ونساء .

* * *

عادت حامدة الى كوخها ، حيث كان ولدها ينتظر على نار ، لمعرفة سبب دعوة الخليفة لها .. وما كادت تدخل الكوخ حتى بادرها بقوله :
— خيرا ، يا أماه ؟
قالت ، والارتياح يغمرها :
— أبشر ، يا ولدي .. سنحج برفقة الخليفة .
— برفقة الخليفة ؟
الحج برفقة الخليفة ... انها لخطوة أولى في سبيل طموحه ، في سبيل تحقيق حلمه ، ولن تكون الخطى التي بعدها صعبة ، فيما لو أعاد الله اليه بصره .
وأعادت عليه أمه قول الخليفة : « وعندي أن أجدر أصحاب هذه الأحلام بتحقيق أحلامهم طلاب العلم ، لأن لأمثالهم مناصب الدولة » .
وأحس الفتى كأن الخليفة يدعوه بقوله الى المثابرة على طلب العلم .
وبات منذ تلك الساعة وكأنه ولد من جديد ، وفي دنياه ثلاثة ، اثنان منها توافرا حتى الآن له : الايمان بالله والحج ، وما دام هذان الاثنان له ، فلا بد من أن يكون له ثالثهما ، وهو عود بصره اليه .

* * *

بين بغداد ومكة مسافة صعب قطعها ، الا أن يكون القصد الى البيت الحرام ، وكسب ما وراء الطواف به من حسنات .
وموكب الخليفة بهذا القصد يسير ، من بغداد الى مكة ينشد الرحمة والغفران .

* * *

كان هم الخليفة الأول ، بعد الوصول الى الأرض المقدسة ، والقيام بمراسيم الحج كاملة ، الانصراف الى تدبير أمر ولديه الأمين والمأمون .
وكان بين الأخوين فارق :
الأمين ضعيف الشخصية ، والمأمون قويها .
ومع ذلك فقد كانت ولاية العهد للأمين ، والخوف من أن يؤدي « فارق الشخصية » الى التنافس ، فالى تنازع السلطان بين الاثنين ، جعل الخليفة الحكيم يحتاط للأمر ، ويعطي كلا منهما في حياته ما يجنبهما خطر الفرقة بعد موته .
وبحضور أركان دولته من مرافقيه ، وجماعة من أهل العلم ، وضع الخطة التي رآها أنسب من سواها لذلك .
واستكتب كلا من الأخوين كتابا .
وبعد الاطلاع والموافقة عليهما ، أمر الخليفة بابلاغهما الرأي العام بتعليق نسخ منهما في الكعبة .
وارتاحت نفس الخليفة الى ما فعل .
وانصرف الى غير ذلك من الأمور .
وتذكر حامدة وولدها ... وشاقه أن يعرف ما كان من أمرهما ، بعد أن تطهرت نفساهما بالحج ، ونال الفتى الضرير المؤمن ما كان يصبو اليـــه من الحسنات .
واستدعى حامدة ، وقال لها :
— أرجو يا حامدة أن يكون ولدك قد وفق في ما أتى من أجله ، وأن يكون له من ارتياحه النفسي ما يضاعف ايمانه بالله .
قالت ووجهها يطفح بشرا :
— لقد طاف ولدي يا أمير المؤمنين وركع وصلى ، ولم يكن ايمانه بالله يوما أحر منه اليوم ، فقد قال لي مستبشرا : سيعود بصري الي ، يا اماه .
قال الخليفة :
— هكذا قال لك ؟
قالت : هكذا ، يا أمير المؤمنين .
— ودليله ؟
— هاتف أتاه في المنام ، وقال له : لن يكون ايمانك بدون ثواب ، وثوابك ما أنت بحاجة اليه لتعمل في دنياك ما يمهد لك السبيل الى الآخرة .
قال الخليفة :
— اذن ، سيعود الى ولدك بصره ؟
قالت : بعون الله .
— وسيعود اليه اصراره على طلب العلم .
— عهدي به هذا .
قال : وددت لو أرى ولدك فأتحدث اليه ولكن ... أتحاشى ذلك ، لئلا يبدر مني ما يضعف شيئا من ايمانه ، فأسيء اليه من حيث لا أدري .
وتابع صادق اللهجة :
— ومع ذلك فانني أكرر ما قلت سابقا من أن مناصب الدولة في عهدي لم تكن يوما الا لأهل العلم وطلابه .

* * *

عاد الخليفة ومن معه من الحج ، كما يعود كل مؤمن أدى واجبه الروحي ، وأثابه الله من منه كل ما يدعو للشكر .
كذلك عادت حامدة وفتاها شاكرين .
والشكر في أي حال لله القائل : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ... ومن أحوج من حامدة وفتاها للزيادة ؟
وستأتي الزيادة المنتظرة ،
ستأتي ...
يؤكد ذلك الايمان ... يؤكده كذلك الهاتف الذي أتى في المنام ، وقال للفتى انه سيثاب على ايمانه ، وسيكون ثوابه ما هو بحاجة اليه .
والى البصر هو بحاجة ،
وسيستعيد بصره .
وبانتظار الأعجوبة كان الفتى ينام ، والأم تسهر معظم الليل بالقرب منه ، وكأنها على موعد مع البشرى .

ولكن ... أي مفاجأة تلك التي لم تكن تتوقعها ، لم تكن تحسب أنها تسهر الليالي لتكون هي التي تأتيها ، بدلا من الأمل الذي كانت تعلل النفس به ؟

ذلك أن صوت فتاها ارتفع فجأة ، وكأنه السهم انطلق من قوس سكينة الليل ، وشك في قلبها :

— أمي ... أمي ... النجدة .

علام يستنجد الفتى ؟

أي شيء أقسى من العمى جعل من ليله الدائم مصدرا لمخاوف تحمله على الاستنجاد ؟

وبم تقوى أمه على انجاده ؟

لو أن لها أن تقلع عينيها من رأسها ، وتهبه اياهما بدلا من عينيه ، لما ترددت في الاقدام على ذلك ، ولكن ...

كل ما كان يمكنها أن تعمل ، ردا على صرخة الاستغاثة التي أرسلها ، هو أن تضمه الى صدرها قائلة :

— لبيك ، يا ولدي .

وبفيض من حنانها المنهمر دمعا سخيا من عينيها تابعت :

— ليت لي أن أرد اليك بصرك ، ولكن الله الذي توكلت عليه لن يخيب رجاءك .

قال الفتى ، وكأن القول يخرج مع الروح من صدره :

— كان هذا أملي من قبل .

قالت : والآن ؟

قال : الآن ... ربما كان سبحانه وتعالى يرى أن ذهابي من هذه الدنيا خير من بقائي فيها .

وأخرس الأسى الأم .. وكاد الشك يداخلها برحمة الله .. الا أنها استعادت على الفور روعها ، وقالت :

— مم تشكو ، يا ولدي ؟

قال : أحس كأني في أتون ، ودفق من سعيره يتصاعد مع الدم الى رأسي ، ومخارز من ألسنة اللهب تشك في عيني ، وصوت الهاتف الذي أتاني المرة الماضية يدوي في أذني ، و ...

وتوقف عن الكلام ،

فقالت الأم :

— وبعد ؟

ولما لم يجب ، كررت السؤال :

— ما قال الهاتف ؟

وكادت دقات قلبها تتوقف عندما نظرت اليه ، وأشعة المصباح الضئيل الذي ينير الكوخ تنعكس على وجهه ، فاذا هو يبدو وكأنه جثة هامدة ، فصاحت :

— حسن ..

وكان الأب المتعب يغط في النوم ، فنادته ثانية وثالثة ... واستيقظ أخيرا من نومه العميق ، وقال لها :

— ما بك ، يا امرأة .

قالت : الطبيب .. لا من دعوة الطبيب في الحال .

قال : ولم الطبيب الآن ؟

قالت : ولدنا وحيدنا ...

وأجهشت بالبكاء .

ولم يكن قلب الأب أقل من قلبها حنانا ، تجاه الآلام النفسية والجسدية التي يعانيها ولدهما ، ولكن ... كان عليه كرجل أن يتجلد أكثر منها كأمرأة ، قال :

— كفي عن البكاء ، وقولي : ما الحاجة الى الطبيب ، في ظلمة هذا الليل ، وولدنا ينام النوم الذي أرى ، وغير الله لن يعيد النور لعينيه ؟

قالت متمالكة :

— غير نومه العادي ينام ولدنا .

قال مهتما :

— غير نومه العادي ؟

ونظر الى وجه الفتى النائم ، فاذا هو غير الوجه الذي يعرفه ، غير الوجه الذي فقدت عيناه البصر ، ولم تفقد بقية أجزائه شيئا من معطيات الحياة .

واكتفى بالنظرة التي ألقاها عليه ، ومن غير أن يعبر عن أساه بكلمة ، خرج في طلب الطبيب .

* * *

كانت للطب العربي ، في زمن الدولة العباسية ، دولة .

وبرغم الشهرة التي نالها بعض أطباء ذلك الزمن ، فقد ظلوا عاجزين — عجز زملائهم اليوم عن التغلب على بعض الأمراض التي كانت تفاجئهم بظهورها .

ومن الأمراض الغريبة المفاجئة ، كان مرض سعد .

ولم يجد الطبيب الذي استدعي سبيلا الى معرفة ذلك المرض ، فقال :

— حمى .. حمى خبيثة ، علينا بانتظار أيام ، قبل البت بأمرها .

ووصف دواء كيلا يقال لم يصف شيئا .

ومر الليل ... وحتى ليل اليوم التالي لم تفارق الحمى المريض الذي راح في غيبوبة شاملة والأم الفاقدة كل شعور بمرور الوقت يخيل لمن يراها أنها في غيبوبة مثله .

أيكون الله تخلى عن وحيدها ؟

لا يمكنها تصور ذلك .

لا يتخلى الله عن المؤمنين به ، واذا كانت يد الطب عاجزة عن شفاء ولدها ، بعد اعترافها بالعجز عن اعادة البصر اليه ، فان يده تعالى غير عاجزة عن ذلك .

وفطنت لأمر كادت تنساه ،

فتهلل وجهها ...

ذلك أنها كانت قد أتت بشيء من ماء زمزم ، فأتت به ... فأنزلت منه نقطا في فم المريض الحبيب ، ومثلها على كل في عينيه المغمضتين .

وتمتمت ضارعة :

— أللهم ... كما استجبت لدعاء الاعرابي ، وعاقبت معذبيه من بني الضبعاء العقاب الذي استحقوه ، أسألك من أعماق قلبي المنسحق أن تستجيب لدعائي ، وتعيد الى ولدي عافيته وبصره .

وكانت الأعجوبة .

فاذا الفتى الفاقد الوعي والنطق يتململ على فراشه ، ويصرخ :

— أماه ...

ونظرت الأم ... فاذا دم غزير ينهمر من أنفه ، ولون الدم المنهمر يبدو وكأنه غير لون الدم العادي ، فلم تتمالك من الهتاف قائلة :

— ولدي ، فداك روحي .

وتكلم الفتى ... تكلم ، بعد الصمت الذي طال حتى كادت الأم المنسحقة القلب تحسبه أبديا ، قال :

— أين أنا ؟

قالت متصنعة الهدوء :

— أنت هنا ، يا حبيب أمك ... قريب من قلبي ، فما علة الدم هذا المنهمر من أنفك ؟

قال : علة هذا الدم ...

وتوقف عن متابعة الكلام ، وكأن شيئا آخر أهم طرأ عليه ، وبعد أن كانت لهجته لهجة عليل يائس ، تحولت الى لهجة سليم يغمره الأمل والفرح ، فهتف قائلا :

— أمي ... انني أراك ، وأرى كل ما حولي ... أيكون الله سبحانه وتعالى قد أشفق علي ، وصنع معي الأعجوبة التي كنا بانتظارها ؟

وكادت الأم تطير فرحا .

وصاحت بالأب المتعب النائم :

— حسن ، قم ... لقد استعاد ولدنا بصره ، فقم نشكر الله سبحانه وتعالى على الأعجوبة التي صنعها معنا .

وفارقت الحمى كذلك الفتى ،

فاذا هو معافى .

وأول ما خطر للأم المضي بـه الى الخليفة ، لأن التفاتته الكريمة ، حين أمر بضمهما الى موكبه للحج ، كانت في نظرها دينا يجب وفاؤه .

وثمة أمر آخر ...

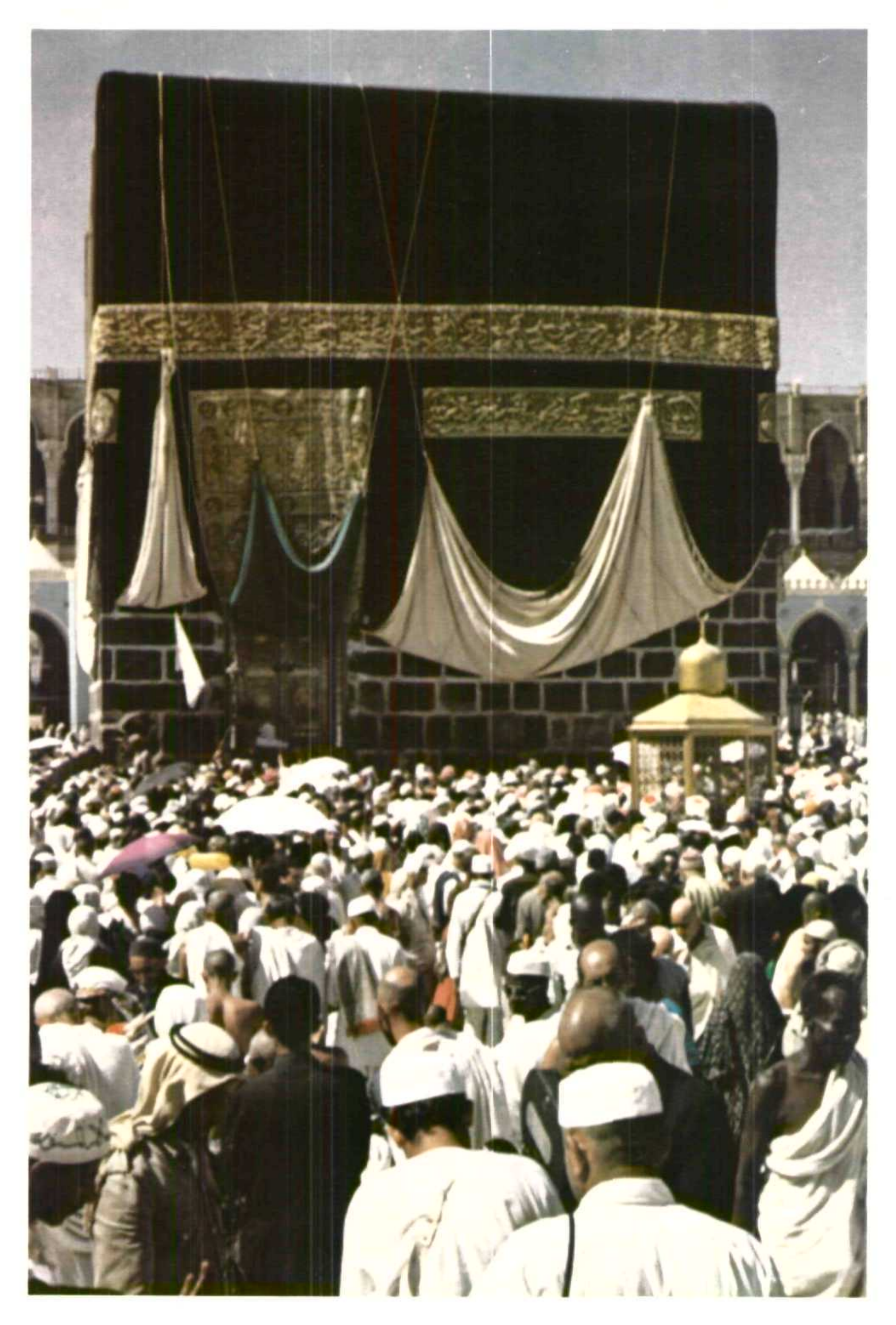
انه طموح ولدها الى العلم ، والى احتلال المناصب العالية ... وقد لفت طموحه الخليفة ، ومن غيره يستطيع أن يسهل له السبيل لنيل أمنيته ؟

ومضت به الى دار الخلافة .

وسر به الخليفة .

واذ عرف الذي جرى له ، وكيف كان عود بصره اليه ، عد ذلك نعمة من الله ، لا يخص بها الا الصالحين من عباده ، وقال للفتى :

— لا شك في أنك مدعو منه تعالى أيها الفتى لاداء رسالة ، وأن خيرا عميما سيأتي الخلافة والاسلام على يدك ، فسر في السبيل السوي الذي اخترته لنفسك ، وعب من معين المعرفة ما شئت أن تعب ، وأنت منذ الآن في عداد كتاب دار الخلافة ■



كُسْوَة الكَعْبَة المُشَرَّفَة

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .

ظلت كسوة الكعبة المشرفة ، لقرون طويلة ، تهدى من قبل حكام مصر ، الى أن قيض الله للجزيرة العربية رجلها المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، فجمع شملها ووحد أجزاءها المترامية الأطراف ، فأمر بأن تنعم قبلة المسلمين بأول كسوة تصنع في أم القرى ، مهبط الوحي ، وموطن النور ، وتحاك بأيد وطنية سعودية .

تم هذا الحدث التاريخي والعمل الاسلامي الجليل في غرة محرم عام ١٣٤٦هـ ، حينما أصدر جلالته أمره السامي بانشاء دار خاصة في مكة المكرمة ، تعد للكعبة المشرفة في كل عام كسوة بهية أنيقة يشهد بروعتها واصالتها ودقة صنعها كل من استطاع الى حج بيت الله الحرام سبيلا . وهكذا ارتدت الكعبة المشرفة أول كسوة من الحرير الخالص صنعت في أم القرى على مر التاريخ .

ثم قيض الله للجزيرة العربية ابن موحدها ، خادم الحرمين الشريفين ، ورائد الدعوة الى التضامن الاسلامي ، الفيصل المعظم ، ليتم ما اختطه أبوه بحزم وعدل ، وليرعى هذا العمل الاسلامي الجليل بفائق رعايته ، ويوليه بالغ عنايته تكريما لهذا البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا .

ففي التاسع من ذي الحجة من كل عام ، وفيما يتجه الحجيج بقلوبهم الى الله مخلصين له الدين حنفاء ، معتصمين بحبله المتين ومستمسكين بعروة نبيهم الأمين ، تجمعهم أقدس رسالة وأسمى شريعة .. في هذا اليوم الأكبر الذي يقف فيه ضيوف الرحمن في عرفات ، يستوهبون من ربهم الرحمة والغفران ، ويبتغون منه الفضل والرضوان ، ترتدي الكعبة المشرفة ثوبها البهي وتتسربل بسربالها الدمقسي ناطقة بالعظمة والوقار والجلال والاكبار يزينها حزام تحليه الآيات الكريمة والنقوش المطرزة بالقصب المموه بالذهب حتى اذا ما أشرق العيد وعاد الحجاج الى بيت الله الحرام بدت لهم في حلتها القشيبة وكأنها تشارك عباد الله الصالحين فرحتهم بالعيد السعيد ، بعد أن شهدوا منافع لهم وذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام.

لمحة تاريخية

تجمع معظم الروايات التاريخية أن أول من كسا الكعبة كساء كاملا من الحرير المقصب هو « تبع الحمير » وذلك قبل الهجرة بقرنين ، وقد ورد ذلك في كتاب محمد لبيب البتنوني « الرحلة الحجازية » حين قال : « وأول من كساها تبع أبو كرب أسعد ملك حمير حين مر عليها راجعا من غزوته ليثرب عام ٢٢٠ قبل الهجرة » ، ولكنه قال انها كسيت بالبرود المقصبة وأنه عمل لها باب ومفتاح . واستشهد على ذلك بما أنشده « تبع » مفتخرا .

فكسونا البيت الذي حرم الله ملاءً مقصبا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه اقليدا

كما تشير هذه الروايات أيضا الى ان أم العباس ابن عبد المطلب هي أول من كسا الكعبة من النساء بالحرير والديباج وفاء لنذر نذرته . وقد دأبت قريش على كساء الكعبة عاما بعد عام حتى عهد أبي ربيعة المخزومي ، الذي كان ذا سعة ومال فخاطب قريشا قائلا : « أكسوها من مالي عاما وقوموا بكسوتها عاما » . وظل الأمر على هذه الحال حتى أشرقت شمس الاسلام ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم بكسوتها بالثياب اليمانية ، ثم كساها من بعده أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وابن الزبير ، وعبد الملك بن مروان .

واستمرت كسوات الكعبة تتوالى تباعا فوق بعضها البعض حتى عام ١٦٠هـ ، وهو العام الذي حج فيه الخليفة العباسي المهدي ، فشكا اليه سدنتها أن كسوات الكعبة المتراكة قد أثقلت كاهلها وأن البناء ضعيف يخشى عليه من التقويض والانهيار ، فأمر الخليفة بأن لا يسدل عليها أكثر من كسوة واحدة وذلك حفاظا على قواعد الله الحرام ، واستمر الأمر كذلك حتى يومنا هذا .

ومما ذكره « الفاكهي » عن كسوة الكعبة المشرفة أن الخليفة المأمون هو أول من كسا الكعبة بالديباج الأبيض .. وفي عهد الفاطميين كسيت الكعبة بالديباج الأبيض ، ثم الأصفر ، ثم الأخضر ، ثم الأسود ، وظل ملوك المسلمين وأمراؤهم يتتابعون على كسوة الكعبة حتى وقف عليها الملك الصالح اسماعيل بن الناصر في عام ٧٥٠هـ ، ثلاث قرى من قرى القليوبية من مصر .

وفي عهد العثمانيين أضيفت سبع قرى أخرى في مصر الى وقف الملك الصالح ، وبقيت هذه القرى موقوفة على الكعبة حتى حل وقفها محمد علي باشا في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة وتعهدت الحكومة المصرية بصنع الكسوة من مالها الخاص .. غير أنه في عام ١٣٤١هـ وقع خلاف بين الشريف الحسين والحكومة المصرية ، منع على أثره دخول المحمل المصري الذي يحمل الكسوة والصدقات ، ونقلت الكسوة التي كانت قد صنعت في الاستانة من المدينة المنورة الى جدة عن طريق « ثغر رابغ » ووصلت في التاسع من ذي الحجة عام ١٣٤١هـ .

ولدى توحيد الحجاز ونجد على يد جلالة المغفور له الملك عبد العزيز ، توقف ارسال الكسوة من مصر ، مما حدا بالملك الراحل ، طيب الله ثراه ، الى كسو الكعبة بكسوة « القيلان » التي كان الشريف الحسين قد صنعها في العراق احتياطا . وفي غرة محرم ١٣٤٦ ، كما ذكرنا آنفا ، تم انشاء دار خاصة لصنع الكسوة في أم القرى ، كما تم استيراد ١٢ نولا ، واجتلاب عدد من الخبراء والفنيين في أعمال النسج والتطريز ، ليتولوا أمر تدريب أبناء هذا البلد المقدس على صناعة النسيج واعداد الحزام ، فشرعوا في عمل متواصل حتى تسنى لهم في نهاية ذي القعدة من العام نفسه انجاز الكسوة الشريفة على أحسن ما يبتغى . ولم تمض سنوات ثلاث على اقامة المصنع حتى أثبت المواطنون السعوديون الذين التحقوا بالعمل في المصنع قدرتهم على اتقان صناعة كسوة الكعبة المشرفة على الوجه الأكمل .

وفي عام ١٣٤٩هـ أسندت ادارة الكسوة والاشراف عليها الى السيد عبد الرحيم أمين المكي ، المدير الفني للمصنع ، كما أدخلت على المصنع تحسينات كان لها أثرها البين في سرعة الانجاز والاتقان مما جعل الكسوة الشريفة موضع تقدير الكثيرين من حجاج بيت الله الحرام ومبعث اعجابهم .

والجدير بالذكر أن دار صناعة الكسوة السعودية قد أضافت الى الكتابة التي كانت تكتب على الكسوة الواردة من مصر ، كلمات « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » كما أن الحزام ، الذي كان يشتمل على سبع قطع مكتوب عليها آيات الحج وقطعة الاهداء ، وأربعة أركان على شكل مربعات صغار وستارة الباب ، قد أدخل عليه أيضا تحسينات حيث جرى اعادة تصميم الحزام في شكل جديد أخاذ . كما أضيفت من جهة حجر اسماعيل تكملة لآيات الحج لم تكن مكتوبة من قبل ، وجعل الحزام من ست عشرة قطعة بدلا من سبع كما أشرنا اليه آنفا .. وقد كتبت الآيات القرآنية عليها بالقصب الفضي المموه بالذهب فبدت بشكل أكثر وضوحا وانسجاما مما كانت عليه من قبل حيث كانت الآيات القرآنية مرتبطة بعضها ببعض في مدار القطع السبع من الحزام لا يفصل بينها فاصل .

مراحل صنع الكسوة الشريفة

تستهل مراحل عملية صناعة الكسوة الشريفة بغسل شلل الحرير الخام البيضاء المستوردة من ايطاليا ، مرات عديدة ، بالماء الساخن والصابون ، لازالة الأوساخ والمواد الكيماوية العالقة بها . وبعد الغسل مباشرة ، تنشر شلل الحرير حتى تجف ثم تصبغ باللون الأزرق النيلي صباغة أولية مع خليط من المواد الكيماوية بغية تثبيت اللون ، ثم تصبغ باللون الأسود . وبعد أن تجف ، تلف شلل الحرير بواسطة ملفات يدوية تدور على مائة بكرة خشبية كبيرة الحجم وتصف بأعداد متساوية بعضها فوق بعض ثم تضم هذه « الفتلات » المائة في مشط حديدي صغير يوضع على لفاف كبير يبلغ قطره ١٥٠ سنتيمترا ، ويستمر اللف عليه حتى يتم عدد « الفتلات » المطلوب وهو ٩٨٧٠ فتلة مع مراعاة الطول المناسب لتوضع في ثمانية أمشاط ، ثم تضم جميعها في مشط حديدي كبير واحد ، وتربط هذه الأمشاط الثمانية على دعاسات خشبية . وبعد ذلك تلي مرحلة ربط الكلمات وذلك وفق نموذج هندسي خاص يعده المدير الفني تمهيدا لتوزيعها على الأنوال . فكلما وضع الصانع قدمه على واحدة من هذه الدعاسات ظهرت جملة من خيوط الكتابة على النول ليمر من تحتها المكوك وهكذا تستمر هذه العملية حتى ينتهي الدرج الواحد من القماش والذي يبلغ طوله أربعة عشر مترا ونصف المتر ، وعرضه مترا واحدا .

هذا وتحتاج الكسوة الشريفة في صنعها الى ٨٧٥ مترا من القماش ، أو الى ٥٤ درجا . ويبلغ سمك القماش حوالي مليمترين أو أكثر ،



تصنع كسوة الكعبة المشرفة محليا بأيد وطنية ، ويبدو هنا أحد العاملين وهو يخط بعض الكتابات والآيات الكريمة التي تتجلل بها الكسوة .

يضاف اليه قماش البطانة من القلع الأبيض المتين .. فضلا عن الكنار الذي يوضع بين كل درجين عند الخياطة . أما حزام الكعبة ، فيتكون من ١٦ قطعة يبلغ طولها ٦١ مترا ، وعرضها ٩٤ سنتيمترا . ويثبت الحزام عادة على ارتفاع تسعة أمتار من الأرض. أما الآيات التي تكتب على محيط الحزام فهي كالتالي :

« **بسم الله الرحمن الرحيم . الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج — وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب — ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم .** »

وهذه الآيات الكريمة تظهر من جهة حجر اسماعيل.

أما الآيات التي تكتب من الجهة الغربية بين الركن اليماني وحجر اسماعيل فهي :

« **بسم الله الرحمن الرحيم واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق .** »

أما من الجهة الجنوبية بين الركن اليماني والحجر الأسود فتكتب الآيات التالية :

« **بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين** » .

أما من الجهة الشرقية لباب الكعبة المشرفة فتكتب هذه الآيات :

« **بسم الله الرحمن الرحيم واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ... « الخ » . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم .** »

هذا بالاضافة الى قطعة كبيرة أيضا يكتب عليها كلمة الاهداء وهي : « صنعت هذه الكسوة في مكة المكرمة وأهداها الى الكعبة المشرفة خادم الحرمين الشريفين فيصل بن عبد العزيز آل سعود تقبل الله منه » .

كما توجد أربع قطع مربعة تجللها سورة الاخلاص ، وتوضع كل قطعة منها في ركن من أركان الكعبة الأربعة ، كما أضيفت ثلاث قطع توضع تحت الحزام مكتوب عليها « **واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان . واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى. ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما .** »

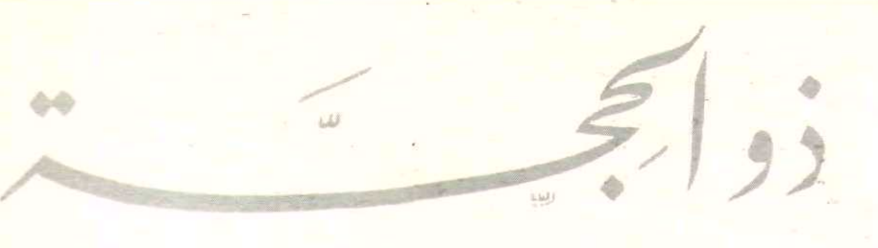
أما ستارة باب الكعبة فيبلغ طولها سبعة أمتار ونصف المتر ، وعرضها ثلاثة أمتار ونصف المتر وتجللها الآيات الكريمة المكتوبة على أشكال هندسية متنوعة تضفي عليها طابعا من الروعة والبهاء .

هذا وان جميع العمال والفنيين الذين يعملون في دار صناعة كسوة الكعبة المشرفة من السعوديين ويبلغ عددهم ثمانين عاملا وفنيا ، وهم موزعون على أقسام النسيج ، وأعمال الحشو والتطريز ، ولف الخيطان والصباغة .

هذا ، وتقوم دار الكسوة حاليا بانتاج كميات من حنابل الصلاة الجيدة الصنع .

وقد تم بالفعل فرش عدد من مساجد مكة المكرمة وغيرها بها ■

عيسى أبو كشك



للشاعر الدكتور زكي المحاسني

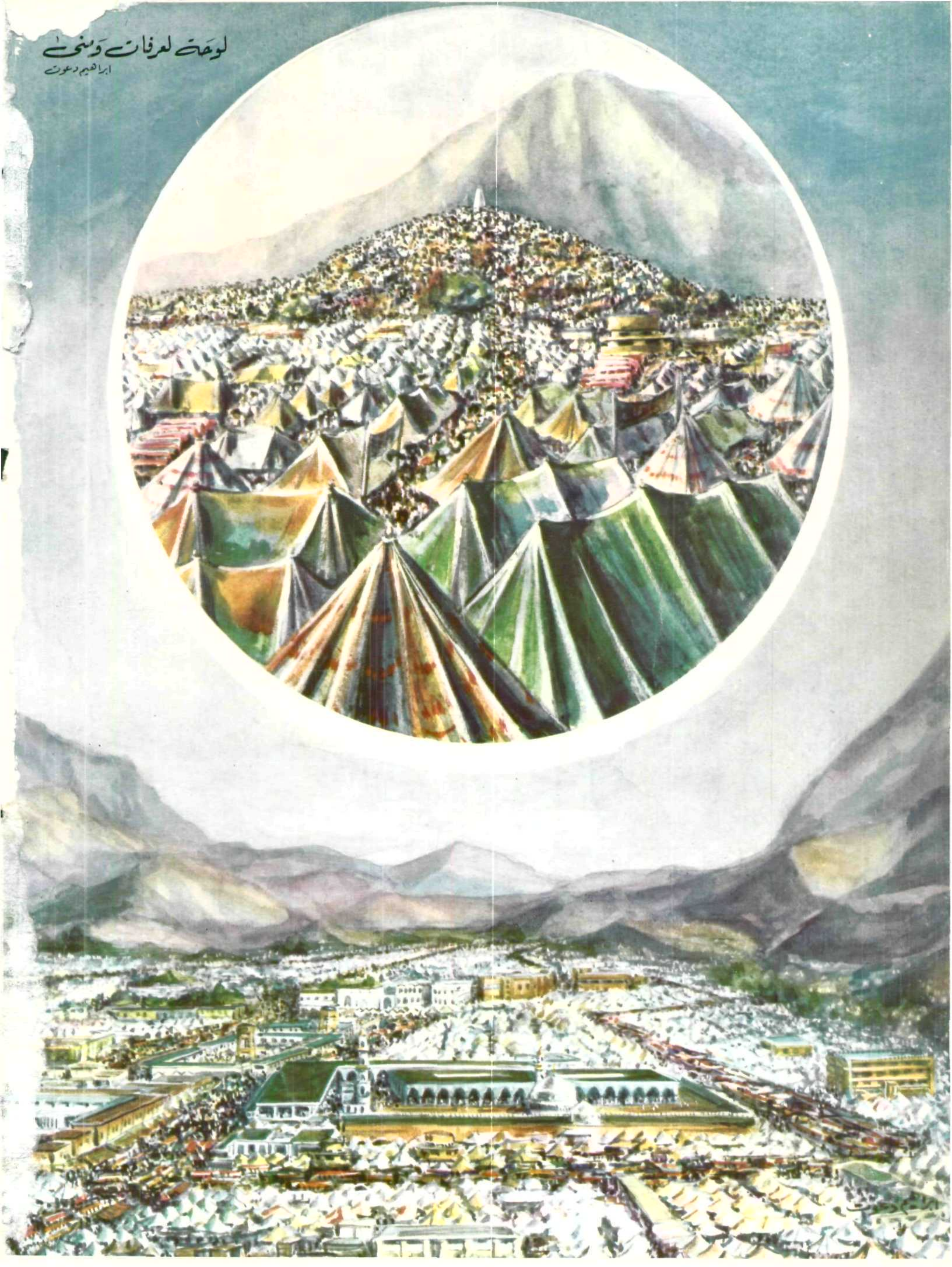
نادى منادي الحمى والناس قد رقدوا … ذا نجم « أحمد » هذا الليل يتقد

فهبّ من مضجع الأوثان عابدها … يستغفر الله وهو الواحد الأحد
يا من رأى اللات والعزى محطمة … والأفق في جاهر التكبير يرتعد
والبيت ماج بأهليه وكلهمو … قد جدد الروح بالايمان يبترد
وفتح « مكة » بالاسلام مبتهج … دين قويم عليه المجد يعتمد

يا غاسل الكعبة الميمون مطلعه … وان قلبك من ربّ به المدد
يا ليتني كنت يوم الحفل أشهده … مبارك السمت في اشراقه الرشد
قد طفت بالبيت والأمواج تدفعني … خليقة الله حول البيت تحتشد
وعاجزون أتوا من نأي أرضهمو … محملون على الأخشاب قد سجدوا
والشوط من بعده شوط يدور بهم … كأن تسبيحهم جوق بهم غرد
لدى الصلاة شهدت الجمع حالية … جسومهم ببياض عنده حُمدوا
لففت جسمي بإحرام وتقت الى … رب السماوات في مرضاته الجَدد

هذي لنا « عرفات » كنت أعرفها … في الحلم حتى بدت حقا لمن سعدوا
خيامها أبد الآفاق شاهدة … مجد الاله الذي يسمو به الأبد
نزلت ضيفا على الرحمن أطلبها … نعمى عوارف لا يحصى لها عدد
وفي « منى » منية النفس التي نذرت … متابة حق فيها الرشد والأيَد
شققت دربي زحاما في مناكبها … أفواج خلق بهم لا يدرك الأمد
والبائعون تنادوا في متاجرهم … فهات سبّحة وازحم كمن جَهِدوا

أما « الجمار » فما شاهدت مجمعه … حتّى دهشت لرمز رميه قصدوا
قل للحجيج اذا أدوا مناسكهم … في الدين وابتهلوا لله اذ عبدوا
للحج دنيا على الاسلام موئلها … في وحدة بذوي الاسلام تتحد
« ذو الحجة » الشهر قد ودعت غاربه … أستقبل العام فيه أهله جُدد
و « مكةٌ » بارك الرحمن كعبتها … دمعي على ذكرها يهمي وينسرد
ولي بأعطافها صحب غطارفة … عن منتدى الجود والعرفان ما بعدوا
و « للسعودية » الغراء حبهمو … عاشوا على المجد والعرفان مذ ولدوا


لوحة لعرفات ومنى
ابراهيم دعوت